Lcn
72960258


مكتبة الدراسات التاريخية

طائفة الدّروز

تاريخها وعقائدها

تأليف

الدكتور محمد كامل حسين

الطبعة الثانية



دار المعارف بمصر

مكتبة الدراسات التاريخية

طائفة الدّروز

تاريخها وعقائدها

تأليف

الدكتور محمد كامل حسين

الطبعة الثانية



دار المعارف بمصر

Lccn 79960258

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

72-960258 · Copy 2

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

مقدمة

يجرى ذكر الدروز على ألسنة الناس ، ويذهبون فى هذه الطائفة مذاهب شتى بينما قل أن نجد بينهم من يعرف شيئاً عن تاريخهم وحقيقة عقائدهم ، وربما نُرجع جهل الناس عنهم إلى أن الدروز أنفسهم يحتفظون بعقائدهم الدينية فى سرية تامة وكتمان شديد فلا يبيحون بأسرارهم الدينية إلى غيرهم ، بل ربما غالوا هم أنفسهم فى ذلك فلا يسمحون بالإدلاء بكل أسرارهم إلا لطبقة خاصة فى مجتمعهم . ومنذ وجدت هذه الطائفة والعالم متطلع إلى كشف الستار عنها ومعرفة أسرارها وفلسفة مذاهبها ، ثم تسربت كتبهم إلى خارج مجتمعهم الدرزى واستطاعت بعض مكتبات الدول أن تقتنى بعض نسخ من هذه الكتب المقدسة السرية ، وترجمت بعض هذه الكتب إلى اللغات الأوربية ، ودرسها علماء أجلاء من الغرب ومن أبناء العربية ، على نحو ما سنذكره فى هذا الكتاب ، ولكن يؤسفنى أن أقول إن هؤلاء العلماء لم يستطيعوا أن يلموا إلماماً تامًّا بمدلول المصطلحات التى زخرت بها كتب العقيدة الدرزية فلم يوفق هؤلاء العلماء التوفيق الذى كنت أرجوه لهم إزاء جهودهم المحمودة ومثابرتهم على العمل العلمى المشكور ، إذ على الذين يريدون دراسة الدروز وبحث عقائدهم أن يلموا أولا بالعقائد الفاطمية وتطورها من عصر إلى عصر ومن بلد إلى بلد ، وأن يعرفوا حق المعرفة مصطلحات الدعوة الفاطمية ، لأنها هى العقائد والمصطلحات التى أخذها دعاة العقيدة الدرزية وبنوا عليها عقيدتهم ومصطلحاتهم ، وربما بلغ بى الغلو فى القول إلى أن شيوخ الدروز أنفسهم ربما وجدوا شيئاً من المشقة فى فهم فلسفة مذهبهم ومدلول مصطلحاتهم إلا ما كان من ذلك متوارثاً جاءهم عن طريق التواتر ، وما نقله الخلف عن السلف ، وكثيراً ما كان

هذا الطريق مشوباً بكثير من التحريف ومن تسرب آراء دخيلة لا أراها فى كتبهم المقدسة ، ولكنها جاءتهم بمرور الزمن من اختلاطهم بأصحاب عقائد أخرى بالرغم من شدة محافظة الدروز على عقيدتهم واستمساكهم بتقاليدهم القديمة ، فدراسة عقيدة الدروز ليست بالدراسة السهلة الهينة بل تكتنفها صعوبات لما يحيط بها من غموض ، وربما كان هذا هو السبب الذى دعا إلى أن يسألنى بعض الأصدقاء فى أن أضع كتاباً عن الدروز ، وليس بعجيب أن يكون هؤلاء الأصدقاء من الدروز أنفسهم الذين صرحوا لى بأنهم لا يعرفون شيئاً عن عقيدتهم بالرغم مما هم عليه من ثقافة واسعة أهلتهم أن يشغلوا مراكز هامة فى المجتمع ، وهأنذا أجيب طلبهم وأقدم لهم هذا الكتاب الصغير البسيط الذى يشرح تاريخهم وعقائدهم ، ويبعد عن الأساليب المنمقة التى يعشقها الكتاب الإنشائيون ، ولم أشأ أن أناقش الآراء المذهبية بل عرضتها كما وردت فى الكتب المقدسة فى إيجاز شديد مع الإلمام بالأصل الذى أخذ منه دعاة الدروز هذه العقائد ، ولكنى رأيت أن أجمل رأى الفاطميين فى معبود الدروز وفى ألوهيته فنشرت هنا رسالة هامة هى رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم ، وقد سبق أن نشرت الرسالة الواعظة فى نفى دعوى ألوهية الحاكم ؛ وهما للداعى أحمد حميد الدين الكرمانى الذى عاصر حركة التأليه ، وناقش دعاة المذهب الجديد .

ونسأل الله تعالى أن يهدينا جميعاً إلى الصراط المستقيم .

محمد كامل حسين

الجيزة فى ٢٧ يونية سنة ١٩٦٠

الباب الأول

تاريخ الدروز

الفصل الأول

لمحة عن أصل الدروز

فى محافظة السويداء من الجمهورية السورية حيث جبل حوران الذى يعرف بجبل الدروز أو جبل العرب نجد منطقة واسعة تشتمل على أكثر من ثلاث وسبعين قرية ، وفيها يعيش قوم عيشة متواضعة هادئة يعملون فى الزراعة أو الرعى ، ويدينون بالطاعة التامة لشيوخ قبائلهم ، ففى شمال هذه المنطقة نجد قبيلة العوامرة ، وفى الجنوب والشرق يقطن بنو الأطرش ، وفى وسط الإقليم يعيش الحناوية والقلاعنة والحلبية والهنيدية وبنو عساف ؛ وأكثر سكان هذه المنطقة على المذهب الدرزى .

وفى لبنان فى القسم الجبلى المعروف بالغرب الأسفل (من الشويفات إلى دير القمر) يسود آل أرسلان ، وفى الغرب الأعلى (من دير القمر إلى عالية ونهر الغابون) نجد آل تلحوق ، وفى الشحار والمناصف يقيم آل النكدى ، وفى الجرد (من الغرب الأعلى إلى نهر الصفا حيث بلدة بتاثر) يسكن بنو عبد الملك ، وفى العرقوب والباروك نجد بنى عماد ، وفى الجرد الشمالى يقطن بنو عيد ، وفى الشوف (من نهر تبدين إلى سطح الجبل) نرى الجانبلاطية ، وهؤلاء جميعاً زعماء وشيوخ الطائفة الهنيدية فى لبنان .

وفى فلسطين العربية عند جبل الكرمل وصفد تسكن قبائل عربية مختلفة تتمذهب بالعقيدة الدرزية .

وفى كل هذه البقاع فى وسط العالم العربى يعيش الدروز متجمعين فى منازلهم بحيث إذا ذكر اسم الدروز يتجه الفكر إلى سكان هذه المناطق ، بينما نجد طائفة

من الدروز يسكنون الجبل الأعلى (بين حلب وأنطاكية) ، ونجد فى بلاد المغرب بالقرب من مدينة تلمسان قبيلة تعرف ببنى عيس تدين بالعقيدة الدرزية دون أن يعرف جيرانهم حقيقة مذهبهم ، ومن يدرى لعل الباحثين يكتشفون طوائف أخرى تعتنق مذهب الدروز فى الأقاليم العربية .

واسم الدروز كان — ولا يزال — مثار مناقشات عديدة بين الكتاب والمؤرخين ، فالمعروف أن هؤلاء الأقوام لا يحبون أن يلقبوا بهذا اللقب ، ويستنكرون أن ينسبهم أحد إلى الداعى نوشتكين الدرزى الذى سنرى أنهم يرمونه بالإلحاد والخروج عن دعوتهم وعقيدتهم ، ويطلقون على أنفسهم اسم « الموحدين » وهو الاسم الذى عرفوا به فى كتبهم المقدسة ، فتسميتهم « بالدروز » إذن تسمية خاطئة وكان يجب أن نسميهم بالاسم الذى ورد فى شأنهم فى كتبهم المقدسة ، ولكن ما حيلتنا بعد أن أصبح اسم الدروز اسم شهرة لهم ، وبهذا الاسم عرفوا فى التاريخ قديماً وحديثاً بحيث أصبح الباحث مضطراً إلى أن يطلق عليهم هذا الاسم الخطأ .

وكذلك نجد الكتاب والمؤرخين يذهبون فى أصل هذه الطائفة مذاهب شتى ، ففى القرن الثانى عشر للهجرة زار الرحالة اليهودى بنيامين إقليم لبنان ووصف المجتمع الدرزى ؛ فذهب إلى أن الدروز سلالة قبائل عربية أنزلها الإمبراطور بمبى لبنان حوالى سنة ٦٤ ق . م. ثم اختلطت هذه العناصر بعناصر آرامية ؛ وجاب الشاعر الفرنسى الشهير لامارتين وتحدث عن رحلته هذه بأسلوبه الشعرى الممتع وقال عن الدروز إنهم من سلالة السامريين القدماء ، أما الكاتب لوشان فقد ذهب إلى أن الدروز والموارنة والنصيرية والعلويين واليزيديين والأرمن كلهم من أصل واحد وهم بقايا الحيثيين القدماء ، وقال آخرون إن الدروز مزيج من عناصر مختلفة من عرب وفرس وهنود ! ! !

وهكذا اختلف الكتاب والمؤرخون فى أصل الدروز ، فإذا وجد كاتب كلمة فارسية فى كتب الدروز المقدسة فعنده أن ذلك يدل على أنهم من الفرس ! ! وإذا وجد كلمة من أصل آرامى فهم إذن من الآراميين ! ! والحقيقة أن الباحث لا يستطيع أن يصل إلى معرفة أصل طائفة من الطوائف إلا إذا كان لديه وثائق تاريخية صحيحة تثبت هذا الأصل ، فاختلاط الشعوب وامتزاجها على طول الزمن

يبعد الإنسان عن نسبه الأصلى قليلا أو كثيراً بمقدار اتصال أسرته بغيرها ، ولكن هناك بعض الأسرات تحافظ على نسبها وتثبته جيلا بعد جيل فيصبح سجل النسب وثيقة تاريخية تعرف منها أصل هذه الأسرة ، كما هو الحال مع آل أرسلان أو آل معن أو آل شهاب أو السادة الأشراف فهؤلاء معروف نسبهم وتسلسله بحيث لانستطيع أن ننكر أصلهم ، وسنرى أننا نستطيع بفضل تتبع نسب شيوخ الدروز ورؤساء عشائرهم أن نقول إنهم عرب ، ولا ندعى ذلك لهم ، بل بذلك يقول التاريخ وتشهد صفاتهم وأخلاقهم .

ومن الغريب أن الخيال لعب دوراً كبيراً عند بعض المؤرخين الفرنسيين فى القرن السابع عشر الميلادى الذين أذاعوا خرافة ألبسوها ثوب الحقيقة ، وأشاعوها فى بلدان أوربا ، فقد زعموا أن الدروز هم سلالة الجنود الفرنسيين الصليبيين الذين كانوا تحت قيادة الكونت دى دروكس الذى أسكنهم جبال لبنان بعد سقوط عكا !! فكلمة الدروز هى تحريف دى دروكس ! ! ! وامتد بهم خيالهم إلى أن الأمير فخر الدين بن معن هو حفيد القائد الصليبى جودفرى! ! !

والذين يعرفون مطامع فرنسا فى بلاد الشام يدركون السبب الذى من أجله أذاعوا هذه الخرافة ليتحببوا إلى الدروز رجال الحرب الممتازين ، وقد نسى المؤرخون الفرنسيون أن هذه القبائل التى اعتنقت عقيدة الدروز كانوا يسكنون هذه المنطقة من لبنان وحوران ووادى التيم قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بأكثر من ثلاثة قرون ، وربما أراد المؤرخون الفرنسيون أن عدداً كبيراً من جنودهم كانوا أسرى عند الدروز فاتخذهم الدروز عبيداً لهم ، كما اتخذوا النساء الفرنسيات إماء وسبايا ! ! !

ومن الطريف أن الإنجليز أرادوا بدورهم أن يقاوموا النفوذ الفرنسى فى بلاد الشام فأذاعوا فى القرن الثامن عشر للميلاد قصة تقول إن الدروز من أصل إنجليزى أى هم سلالة الجنود الإنجليز الذين صاحبوا ريتشارد وغيره من ملوك الإنجليز الذين أسهموا فى الحروب الصليبية ، وليس لنا إلا أن نمر على مثل هذه الروايات ساخرين من هذه العقليات الاستعمارية التى تريد قلب الحقائق التاريخية فى سبيل تحقيق مطامع الاستعمار . أما نحن فنذهب إلى تحقيق أصل الدروز عن طريق دراسة

القبائل التى يتكون منها المجتمع الدرزى ، فالمؤرخون جميعاً على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم يجمعون على أن العقيدة الدرزية أول ما ظهرت فى بلاد الشام إنما ظهرت فى المنطقة المعروفة بوادى التيم (بين دمشق وبانياس) وكان ذلك فى سنة ٤٠٨ هـ . وقد سمى هذا الوادى بذلك الاسم نسبة إلى قبائل تنتسب إلى تيم الله بن ثعلبة وهى قبائل يمنية الأصل هاجرت من الجزيرة العربية فى الجاهلية وسكنوا الفرات وكان منهم ملوك المناذرة أصحاب الحيرة ، والتاريخ يسجل لهم حوادث معروفة فى هذه الأيام ، وهاجر بعض بطون هذه القبائل إلى منطقة حلب حيث استقروا فى بلاد المعرة وسادوا هذه المنطقة ، وفى عهد الفتوحات الإسلامية الكبرى أسهم بعضهم فى فتح الشام ، واستقرت بعض بطونهم فى هذا الوادى الذى سموه باسمهم ، وجاء بعضهم إلى مصر مع جيش عمرو بن العاص ونزلوا الإسكندرية وما يعرف الآن بمحافظة البحيرة .

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان قاموا بنصره وحاربوا معه فى معركة صفين وأبلوا بلاء حسناً ، فجعلهم معاوية سادة فى المناطق التى حلوا بها وأصبحوا أمراءها وأصحاب إقطاعها ، واشتركوا مع الأمويين فى حروبهم ضد الروم ، ولكن عند ما ظهرت حركة العباسيين ، انضموا لدعوتهم واشتركوا فى معركة الزاب ضد مروان بن محمد . وبذلك أصبحت لهم يد عند العباسيين وأقروهم على ما بيدهم من الإمارات ، ولما قدم الخليفة أبو جعفر المنصور العباسى إلى دمشق وفد عليه أمراء بلاد المعرة ، فقربهم إليه وطلب إليهم أن تنزح بعض بطون قبائلهم إلى لبنان لحماية السواحل من بغتات الروم وتأمين طرق المواصلات من بعض السكان هناك الذين عرفوا بالمردة اعتادوا نهب القوافل والإغارة على القرى والمدن ومساعدة الروم فى حرب المسلمين ، فصدع اثنان من زعماء القبيلة هما الأمير المنذر بن مالك وأخوه الأمير أرسلان لطلب الخليفة ورحلا بجموعهما سنة ١٤٢ هـ إلى جبال لبنان بعد أن أقاموا عدة أيام فى وادى التيم حيث كان ينزل بنو عمومتهم ، وتفرقت هذه الجموع العربية فى جبال لبنان ، وكانت لهم مواقع مع المردة كان الانتصار فيها للعرب ، فذاع أمرهم وقوى شأنهم وأقرهم الخلفاء العباسيون على إمارة هذه الأقاليم التى صارت إقطاعات لهم ، وسمع بنو عمومتهم بما صاروا إليه من إمارة ونعيم فى

الحياة فهاجروا إليهم وتكاثر عددهم حتى أصبحوا قوة لها شأنها فى حفظ هذه البلاد من هجمات الروم ، كما أن منطقة حوران اقتسم إمارتها بنو شهاب القرشيون والأمراء التنوخيون ، واستمرت هجرة القبائل العربية إلى لبنان وحوران ووادى التيم ووسعت كل قبيلة فيها إلى بنى أبيها حتى اشتدت شوكة هذه القبائل فى تلك البقاع ، وكان العباسيون يطلبون مساعدتهم كلما ثار بلد ضدهم ، فمثلا فى ثورة مصر ضد المأمون العباسى طلب من الأمير مسعود الأرسلانى أحد الأمراء بلبنان أن يأتى معه بفرسان لمساعدته فى إخماد الثورة ، فلما عاد الخليفة من مصر ولاه إقليم صفد ومقاطعاتها واستمروا ولاة لمقاطعاتهم إلى أن كانت سنة ٣٥٨ هـ ، إذ قامت جيوش المعز لدين الله الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح لفتح بلاد الشام وبعد أن استولى على الرملة وطبرية كتب إلى الأمير سيف الدولة المنذر بن النعمان بن عامر أمير بيروت يدعوه إلى بيعة المعز ، فاستشار سيف الدولة عشيرته ، فأجمعوا على مصانعته حتى يروا ما يكون منه ، فلما استولى جعفر بن فلاح على دمشق ، سار إليه سيف الدولة وزعماء قومه وبايعوه للمعز لدين الله ، وبذلك دخلت هذه القبائل فى الدعوة الفاطمية . ولما قامت حركة أفتكين التركى بدمشق وأخرج عامل الفاطميين منها ، واتصل القرامطة بأفتكين ، يساعدونه ضد الفاطميين انقسم أمراء العرب بين موالين للفاطميين وبين موالين للقرامطة وأفتكين .

على أننا نتساءل عن مدى علاقة هذه القبائل العربية بالدعوة الفاطمية فى دور الستر أى قبل تأسيس الدولة الفاطمية ببلاد المغرب سنة ٢٩٧ هـ حينما كانت سلمية بالقرب من حماة مركز هذه الدعوة السرية ، وعن علاقة هذه القبائل بحركة القرامطة فى الشام ، والجواب عن هذين السؤالين شاق عسير لا سبيل إليه لعدم وجود نصوص يعتمد عليها فى ذلك ، بل قل إن المؤرخين لم يذكروا شيئاً عن هذه العلاقة ، وكل ما وصلنا إليه من ذلك كله أن القرامطة حاولوا الاستيلاء على إقليم حوران سنة ٨٩٥ م فالتقى بهم الأمير سعيد بن عامر أمير المقاطعة وهزم القرامطة هزيمة منكره .

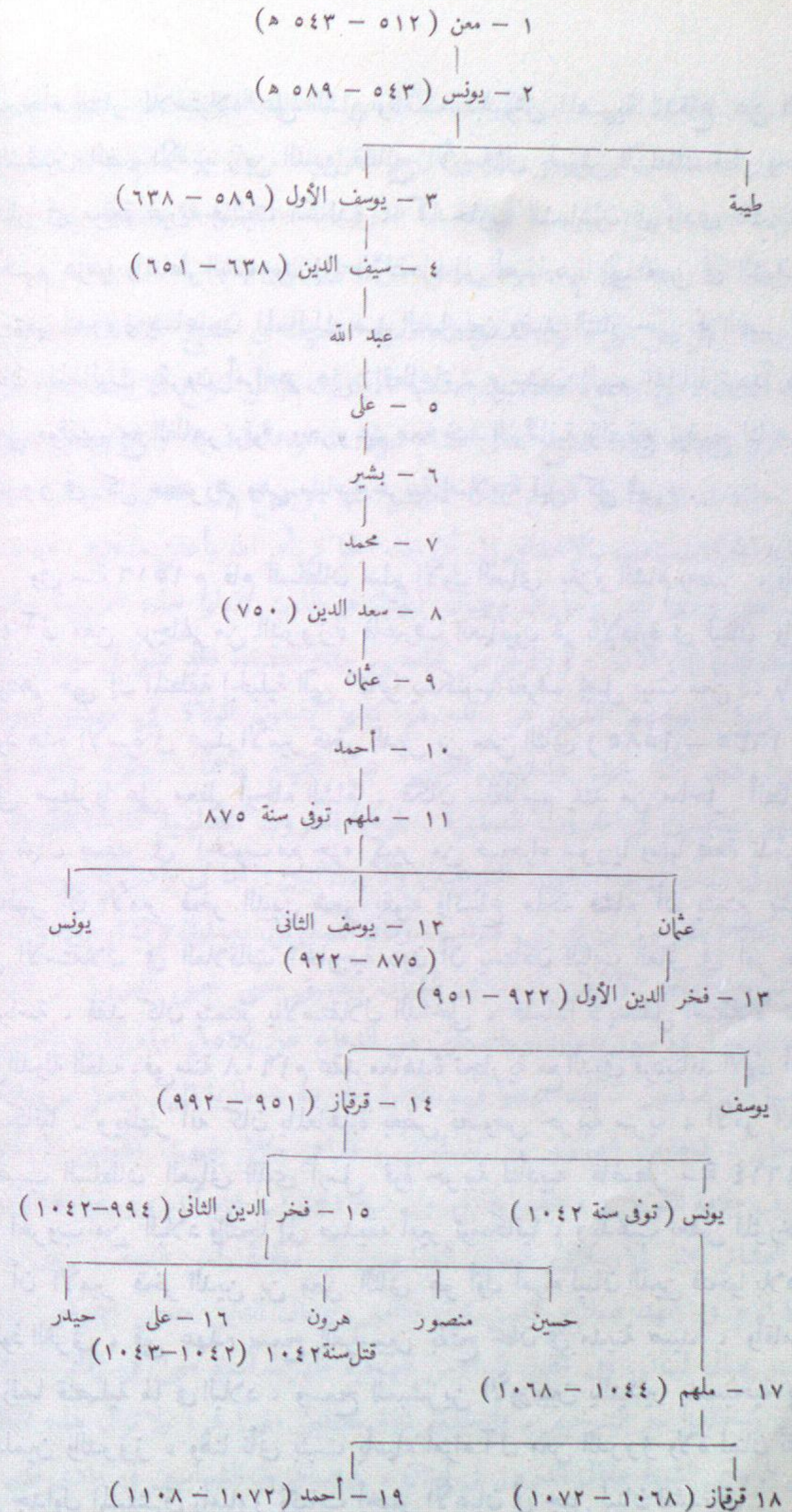
ومن يدرى لعل بعض أهالى هذا الإقليم استجاب للقرامطة أو للدعوة الفاطمية دون أن يشير إلى ذلك أحد من المؤرخين ، وربما كانت العلاقة وثيقة بين

بعض سكان وادى التيم وبين القرامطة لأن من العقائد الدرزية أن المعبود أظهر ناسوته فى شخصية زكرويه بن مهرويه زعيم القرامطة ، وربما قبلت هذه العقيدة الدرزية لتحبيب أتباع زكرويه فى العقيدة الدرزية فاستجابوا لها بسهولة. ولا يزال الدروز إلى الآن يطلقون لقب قرمطى على كل رجل زاهد متعبد .

ومهما يكن من شىء فإن الدعوة الفاطمية انتشرت فى جميع بلاد الشام بفضل الدعاية المنظمة التى وضع الفاطميون أسسها ، وكانت قبائل تنوخ فى بلاد المعرة وفى وادى التيم وجبال لبنان أسرع أهالى الشام قبولا للدعوة الفاطمية وبالرغم من وجود بعض حركات ثورية فى الشام كان الغرض منها الرجوع إلى الدعوة العباسية فإن كل هذه الحركات باءت بالإخفاق إلى أن جاء الحاكم بأمر الله وأعلن مذهبه الجديد؛ فكان أهل وادى التيم وحوران وجبال لبنان هم الذين تقبلوا هذه العقيدة وظلوا يحافظون عليها إلى الآن . وبالرغم من تمذهبهم بهذه العقيدة فقد ظلوا فى مقاطعاتهم تحت إمرة شيوخهم الذين هم بدورهم كانوا يتبعون الولاة فى دمشق وعكا وبيروت دون أن يحول مذهبهم الدينى عن القيام بأعمال بطولة خارقة مع إخوانهم المسلمين فى الحروب الصليبية . فإبان الحروب الصليبية كانت إقطاعات الدروز فى لبنان فى يد أسرتين : التنوخيين والأرسلانيين ، أما فى وادى التيم وحوران فكان إقطاع الدروز فى يد بنى شهاب ، وكان الصليبيون يعملون لإنشاء دولة لاتينية على ساحل البحر الأبيض تتسع فى الشمال وتضيق حتى جبل الدروز ، فكان لا بد للدروز فى سوريا ولبنان وفلسطين من الدفاع عن بلادهم أمام الغزو الخارجى ولا سيما أن المسلمين — وقد عهدوا فيهم المقدرة الحربية — طلبوا إليهم العمل على سلامة الساحل ، فحارب الدروز مع المسلمين ، فنراهم مثلا يقومون بالهجوم على قلعة الشقيف وقلعة القرين فى منطقة الجليل، وفى سنة ١١٥١ م هزم الدروز بقيادة الأمير أبى العشائر بحتر الأرسلانى جيوش الصليبيين فى موقعة رأس التينة ، وفى سنة ١١٨٦ م فى عهد صلاح الدين تولى الأمير جمال الدين حجى التنوخى إقليم الغرب بجبال لبنان، وفى القرن السادس للهجرة ظهرت أسرة معن فى إقليم الشوف بلبنان وتحالفوا مع التنوخيين، واتخذوا بلدة بعقلين مقراً لهم، ولا تزال هذه البلدة المقر الروحى لشيخ عقال الدروز فى لبنان ، ثم صاهروا الشهابيين فى وادى التيم ،

ولما جاء التتار للاستيلاء على الشام وقامت الجيوش المصرية للدفاع عن العرب والمسلمين انضم الأمير زين الدين صالح الأرسلانى لجيوش السلطان قطز وحاربوا التتار فى موقعة عين جالوت الخالدة ، كما حارب الشهابيون فى وادى التيم التتار ولكنهم هزموا واضطر الشهابيون إلى الالتجاء إلى أصهارهم بنى معن فى الشوف ، واستمر الدروز يساعدون المماليك ضد الصليبيين وضد التتار حتى تم النصر لهم ، وكان المماليك يقرون أمراءهم على إقطاعاتهم ويهدون إليهم الهدايا تودداً لهم ، ولعل موقفهم مع الظاهر برقوق وحروبهم معه ضد التركمانية والفرنج توضح لنا سياسة الدروز فى كل عصورهم وهى سياسة عربية إسلامية قبل كل شىء .

وفى سنة ١٥١٦ م قام السلطان سليم الأول العثمانى بغزو الشام ومصر ، وانضم إليه آل معن برجالهم من الدروز ، فاعترف العثمانيون لهم بالإمارة فى لبنان وازداد نفوذهم حتى إن المنطقة الجبلية التى كانوا يسكنونها تعرف بجبل بيت معن، واتسع نفوذ هذه الأسرة فى عهد الأمير فخر الدين بن معن الثانى (١٥٨٥ — ١٦٣٥ م) حتى سيطروا على معظم أرجاء الشام ، فكان سلطانهم يمتد من ساحل أنطاكية إلى شمال صفد فى الجنوب مع جزء كبير من صحراء سوريا ومنها قلعة تدمر ، ويظهر أن الأمير فخر الدين شعر بقوته واتساع ملكه فشاء أن يتمتع بشىء من الاستقلال فى العلاقات الخارجية دون أن يستأذن الباب العالى فى أمر هذه السياسة ، فقد كان يتمتع بالاستقلال الداخلى ، فلماذا لا يستقل استقلالا تاماً عن الدولة العلية، ففى سنة ١٦٠٨م عقد معاهدة تجارية مع الدوق فرديناند الأول أمير توسكانيا ، ويظهر أنه كان بالمعاهدة بعض نصوص حربية سرية ، الأمر الذى أغضب السلطان العثمانى الذى أرسل قوة حربية لتأديبه فاضطر سنة ١٦١٤ م إلى الهروب من البلاد والتجأ إلى صديقه أمير توسكانيا ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الأمير فخر الدين بن معن الثانى هو أول أمراء لبنان الذين فتحوا بلادهم للنفوذ الغربى ، ففى عهده سمح للفرنسيين بفتح خان فى مدينة صيدا ، وأقامت فلورنسا قنصلية لها فى البلاد ، وسمح للمبشرين الأوربيين بالتبشير بالمسيحية بين المسلمين والدروز ، وهنا نأتى بثبت بأسماء أمراء آل معن الدروز ولاة لبنان نقلا عن جداول المستشرق زامباور وكتاب أخبار الأعيان فى جبل لبنان للشدياق :



هؤلاء هم أفراد أسرة معن الشهيرة فى تاريخ لبنان ، ونستطيع أن نعرف أن الإمارة استمرت فى هذه الأسرة حوالى ستة قرون لم تخرج عنهم ، وذلك بفضل ما امتا: وا به من شجاعة وبسالة واتخاذهم من الجبال حصوناً لهم ضد أعدائهم ، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يكونوا لهم دولة على غرار الدول الإسماعيلية التى عرفها التاريخ العربى ، ولم يكونوا مستقلين تماماً ، بل كانوا يؤدون الأموال إلى الباب العالى بالآستانة ، فكأنهم كانوا يدينون إلى السلطان العثمانى بلون من ألوان الولاء إذ كانوا تبعاً لوالى عكا ، حقيقة كانت طائفة الدروز يخضعون لإمرة مشايخهم خضوعاً تامًّا ولا يعترفون بسلطة هؤلاء الولاة ، ولكنهم كانوا دائماً مع الوالى ينتصرون له ، ويحاربون هذا الوالى إذا شعروا منه بظلم يحيق بهم ، هذه هى السياسة التى عاش عليها الدروز فى لبنان أو فى حوران ، وتاريخهم كله ينحصر فى هذه السياسة وهى موالاة الولاة إذا لم يتدخلوا فى شئونهم .

وبنو معن صاهروا بنى شهاب الذين لهم أثر كبير فى تاريخ الدروز ، وبنو شهاب أسرة قرشية معروف نسبها القرشى لأبيهم وأمهم ، وكانوا أصحاب إقطاع ولاية حوران ، وكان نور الدين زنكى يستعين بأتباعهم دروز حوران فى حروبه ضد الصليبيين ، وفى أواخر القرن السادس للهجرة هاجر الأمير منقذ الشهابى إلى وادى التيم واتخذ مدينة حاصبيا مقراً له ، وارتبطت أسرة شهاب بأسرة معن برباط النسب إذ تزوج الأمير يوسف الأول (٥٨٩ — ٦٣٨) بسعدة بنت الأمير منقذ الشهابى كما زوج أخته طيبة من الأمير محمد بن منقذ ، وفى القرن السابع للهجرة تزوج الأمير على بن عبد الله المعنى من ابنة الأمير عامر الشهابى ، وفى القرن الثامن للهجرة تزوج الأمير عثمان بن سعد الدين المعنى من ابنة أبى بكر بن حسين الشهابى ، وبعد وفاة آخر شيوخ معن الدروز سنة ١١٣٩ هـ حلت الأسرة الشهابية محلها فى إمارة لبنان وكان أول من ولى هذه الإمارة من الشهابيين هو بشير الشهابى الأول ، ولكن الشهابيين لم يظهروا درزيتهم بالرغم من ارتباط تاريخ الدروز بهم ، فى عهد المعنيين قامت فى لبنان حروب داخلية بين القبائل القيسية واليمنية ، وكان المعنيون لا يأبهون بهذه الحروب بل وقفوا من الحزبين موقف المتفرج ، وانقسم الدروز بين الحزبين فكانوا يتخذون حوران ووادى التيم ملجأ لهم كلما انهزموا

أما فى عهد الشهابيين فقد انضموا إلى القيسية وبفضل وجود بنى شهاب انقضت الفتن بين القيسية واليمانية . ولكن قامت فتن أخرى بين الدروز والمارونيين استمرت حتى سنة ١٨٦٠ م ، كما انقسمت طائفة الدروز بين مشيختين كبيرتين هما الجانبلاطية واليزبكية ، ولذلك جدير بنا أن نتحدث عن هذه الأسرات الدرزية فى لبنان التى لها شأن فى تاريخ الدروز ، ونلاحظ أننا سنقف عند تاريخهم إلى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد إذ ألغى نظام الإقطاع فى لبنان وسوريا ، وأصبح للدروز ما لغيرهم من المواطنين ، وصار تاريخهم هو تاريخ بلدهم .

الجانبلاطية

عائلة من مشايخ الدروز فى لبنان قيل إنهم ينتسبون إلى جانبلاط بن سعيد ابن مصطفى بن حسين بن جانبلاط بن قاسم . أتى جانبلاط بن سعيد بولده رباح من حلب إلى بيروت إلى آل معن للصداقة التى كانت بين الأسرتين فقدم إليه أكابر جبل لبنان ودعوه إلى الإقامة فى بلادهم فأتى وأقام فى الشوف ، وكان الأمير فخر الدين يعتمد عليه فى المهمات وفى سنة ١٦٣١ أرسله فخر الدين إلى قلعة شقيف أرنون للمحافظة عليها خوفاً من الأمير طربية بن على الحارثى أمير اللجون فأقام هناك سنتين وتوفى سنة ١٦٤٠ ، وخلف ابنه رباح ثلاثة أولاد : على وفارس وشرف الدين وتزوج ابنه على بابنة الشيخ قبلان القاضى التنوخى كبير مشايخ الشوف ثم انتقل إلى بعذران ، وتوفى الشيخ قبلان سنة ١٧١٢ دون أن ينجب ولداً فاتفق أهالى الشوف على أن يولى المشيخة على ووافق الأمير حيدر الشهابى على ذلك فولى مقاطعات الشوف فأحسن إلى الناس فأحبوه حتى صار شيخ المشايخ ، وفى سنة ١٧٧٧ أحدث الأمير يوسف الشهابى مالاً على البلاد فثار الناس وطلبوا من الشيخ على أن يلتمس من الأمير يوسف إبطال ذلك فلم يجبه الأمير فدفع على المال من جيبه الخاص فازدادت محبة الناس له وتعلقوا به فخاف الأمير يوسف جانبه فأوقع الفتنة بينه وبين الشيخ عبد السلام العماد وجمع كل منهما حزبه فانقسمت البلاد إلى قسمين قسم تحزب للشيخ على فعرفوا بالجانبلاطية وقسم إلى عبد السلام عرفوا باليزبكية .

ولكنهما اصطلحا سنة ١٧٧٨ .

وتوفى الشيخ على سنة ١٧٧٨ فى بعذران وعمره ٧٨ سنة وترك ستة أولاد : يونس وجانبلاط ونجم ومحمود وقاسم وحسين ، وتولى المشيخة بعده ابنه قاسم وسكن قرية المختارة بالشوف ، وفى سنة ١٧٨٠ وفد عليه الأمير سيد أحمد فاراً من أخيه الأمير يوسف فأجاره الشيخ قاسم واتحد مع عبد السلام العماد على خلع الأمير يوسف وإقامة أخيه سيد أحمد فى ولايته ، ففر الأمير يوسف إلى عكا واستغاث بواليها الجزار باشا الذى أرسل معه جيشاً كثيفاً فهرب الجانبلاطية إلى جبل عامل ، وعاد الأمير يوسف لينتقم من أهالى الشوف ويدمر أملاك الجانبلاطية ويصادر أموالهم ، ولما تولى الأمير سيد أحمد الشهابى البقاع انضم إليه الجانبلاطية وأرادوا المقام عنده فى قلعة قب إلياس ولكنه أظهر لهم الجفاء فانتهز الأمير يوسف هذه الفرصة وهاجمهم وانتصر عليهم فهاجروا إلى حاصبيا وفى سنة ١٧٩٠ تولى الأمير حيدر والأمير قعدان الشهابيان وفر منها الأمير بشير عمر الوالى إلى صيدا واصطحب معه المشايخ الجانبلاطية فصار الشيخ قاسم الجانبلاطى وبشير الشهابى على رأس جيش الجزار باشا . وفى سنة ١٧٩١ أرسل الجزار قاسم الجانبلاطى لجمع المال من الأهالى ولكن بشير بن قاسم الجانبلاطى وقف فى وجه العساكر التركية وحاربهم إلى أن هزمهم وأعادهم إلى صيدا وتوفى الشيخ قاسم سنة ١٧٩١ فاختار الدروز ولده بشيراً الذى لقب بعد ذلك بعمود السماء ليتولى المشيخة بعد أبيه ولكن فى سنة ١٧٩٣ وقعت فتنة بين الجانبلاطيين والأمراء الشهابيين أدت إلى أن يرحل الجانبلاطيون إلى وادى التيم (حوران) وخربت دورهم فى بعذران . ثم تحسنت علاقتهم بالوالى الجزار باشا فأرسل الشيخ بشيراً مع جيش قوى إلى الشوف فأسرع اليزبكية والنكدية لحربهم فى بعقلين .

وفى سنة ١٧٩٨ تولى الأمير بشير الشهابى الولاية وكان الشيخ بشير الجانبلاطى مشيره ويده اليمنى حتى قيل إنه ساعد الموارنة مساعدة قيمة جعلت البابا يرسل إليه يشكره .

وفى سنة ١٨٦٠ قام الشيخ بشير برجاله الدروز لمساعدة والى عكا سليمان باشا فى طرد يوسف باشا الكردى والى دمشق فلما انتصرت جيوشه ازدادت مهابته

فى النفوس واتسع نفوذه حتى إن دروز الجبل الأعلى بحلب استغاثوا به سنة ١٨١١ من ظلم والى حلب فأرسل إليهم أن يهاجروا إليه ومنحهم الأراضى فى المتن وغربى البقاع وغيرهما من المقاطعات الدرزية .

وفى سنة ١٨١٤ بنى فى قرية المختارة جامعاً جميلا لإقامة الصلوات الخمس ولكنه اتهم سنة ١٨١٨ بالمساعدة على قتل أميرين من الأمراء الشهابيين مما جعل الأمير بشيراً يقوى اليزبكية ضد الجانبلاطية ، وفى سنة ١٨٢٢ ساعد عسكر عبد الله باشا فى حروبه مع درويش باشا والى دمشق .

ثم حدث شقاق بين الأمير بشير الشهابى والشيخ بشير الجانبلاطى أدى إلى حروب طويلة بين الدروز والولاة أدت إلى هربه إلى عكا ثم القبض عليه وقتله سنة ١٨٣٥ . وتتبع الأمير بشير الشهابى الجانبلاطية فهدم دورهم وصادر أموالهم .

ولما قدم إبراهيم باشا سنة ١٨٣٢ انضم إليه الأميرُ بشير الشهابى ووقف أولاد الشيخ بشير الجانبلاطى على الحياد فى أول الأمر ثم ذهبوا إلى والى دمشق ثم توجهوا إلى عساكر السلطان فى حمص ، ولكن هزمت جيوش السلطان سنة ١٨٣٣ فى موقعة حمص فاختبأ سعيد وإسماعيل (ابنا بشير الجانبلاطى) فى الجبل الأعلى . غير أنهما اضطرا إلى طلب عفو الأمير بشير الذى سيرهما إلى القاهرة ، ودخل سعيد خدمة جيش محمد على برتبة ملازم ثم رقى إلى رتبة يوزباشى ثم إلى بيكباشى ، وحضر أخوه نعمان إلى مصر وأنعم عليه محمد على بنيشان وجعله « أميرالاى » . وفى سنة ١٨٤٠ قدم عزت باشا سر عسكر العثمانيين إلى بيروت ومعه الأسطول الإفرنجى فحضر نعمان بك ببعض رجاله للانضمام إليه فأنعم عليه عزت باشا برتبة أبيه « شيخ المشايخ » فلما علم أخوه سعيد بذلك أمر رجاله بالهروب من جيش محمد على إلى البقاع حيث تجمع له عدد كبير من الدروز وسار مع الأمير بشير ملحم لطرد إبراهيم باشا ، وتجمع الدروز الجانبلاطية بعد ذلك واستولوا على المقاطعات التى كانت لهم من قبل .

وفى سنة ١٨٤١ حدثت فتنة بين أهل دير القمر وبعقلين استطاع سعيد بك أن يخمدها ثم قامت الحرب بين الدروز والموارنة بالدير وقاد سعيد بك الدروز وهزم الموارنة . وفى سنة ١٨٤٢ تنازل نعمان بك عن المقاطعة واعتزل إلى عبى فتولى

سعيد بك أمر الدروز ، ولكن حدث أن أمر مصطفى باشا الوالى بالقبض على زعماء الدروز فأحضرهم إلى بيت الدين وقبض على سعيد بك ونعمان بك وغيرهما وسجنوا فى بيروت ولكن جاء شبلى العريان مع دروز حوران وقرى الشام فخاف الوالى أن يدخل معهم فى حرب فأطلق سراح سعيد بك ولكن الدروز أبوا إلا الحرب ، واتفق سعيد بك مع الأمير أمين أرسلان على إعادة النازحين عن البلاد حتى تهدأ الفتنة فسافر الأمير أمين أرسلان إلى الآستانة وعاد ومعه الأمر بعودة الدروز إلى بلادهم وإطلاق سراح المعتقلين منهم ، وجعل الأمير أمين أرسلان قائمقام للدروز وعاونه سعيد بك لتنظيم البلاد .

ونسبت إليه المشاركة فى حوادث سنة ١٨٦٠ فقبض عليه هو وعدد من كبار رجال الدروز فى الجبل وقدم للمحاكمة ولكنه توفى سنة ١٨٦١ قبل إتمام التحقيق .

اليزبكية

أسرة تلحوق

عائلة من المشايخ الدروز فى لبنان ينسبون إلى قبيلة من العرب تعرف ببنى عزام من قبائل أزد عمان القيسية أتوا مع الأمير معن إلى الشام ثم استدعاهم الأمير عامر الشهابى إلى حوران فأقاموا هناك ثم انتقلوا إلى وادى التيم ومنها انتقلوا إلى بيروت سنة ١١٤٤ م لفتنة حدثت بينهم وبين الشهابيين ، وحدثت حروب بينهم وبين بنى الحمراء فى بيروت اضطروا بعدها إلى الانتقال إلى غرب كفر شيما وعمروها . ثم دهمهم أمراء آل جمال الدين التنوخيون فقتل أفراد الأسرة ولم يبق منهم سوى أحمد الذى استقر فى عيثات وما زال يطلب الانتقام من اليمنية كلما سمع بواحد منهم ، ثم جاء حفيده شاهين إلى بيروت فانتقم منه اليمنية وقتلوه فقام ولداه محمد وبشير وانتقما من قتلة أبيهما ويقال إنهما قتلا زهاء ٢٧٠ نفساً .

وفى ولاية فخر الدين بن معن أرسل الشيخ محمد التلحوق إلى الآستانة لطلب سنجقية إربد وعجلون لولده الأمير حسين بن فخر الدين فأجيب إلى طلبه على أن يكون الشيخ محمد نائباً عنه ، وفى سنة ١٧١١ فر الأمير حيدر الشهابى الوالى من

جيوش محمود باشا فتبعه الشيخ محمود وولداه شاهين ووقعت معركة غزير واستبسل الدروز حتى هزموا جيوش محمود باشا، وسار حيدر الشهابى إلى الهرمل ومعه الشيخ محمد وابنه إلى أن عاد حيدر إلى ولايته فنزع ولاية الغرب الأعلى من الأمير يوسف أرسلان لأنه يمنى وأقطعه الشيخ محمد ، وتولى المشيخة بعده ابنه شاهين .

وفى سنة ١٨٣٠ كان الأمير بشير عمر يحاصر قلعة سانور واجتمع أهل نابلس فى قرية عجة فأغار عليهم الشيخ حسين والشيخ فارس من التلاحقة ومعهم الشيخ ناصف النكدى وهزموهم و بعثوا بالأسرى إلى الأمير بشير . وفى سنة ١٨٤٠ قتل إبراهيم باشا الشيخ ظاهر حمد بتهمة اشتراكه فى الثورة ضده ، وفى سنة ١٨٤٤ ، جرد الأمير حيدر جيشاً لمحاربة الدروز بعالية فقابلهم الشيخ محمود وأخوه الشيخ ناصيف وهزموا جيش الوالى وانضم إليهم المشايخ وهربوا إلى الوادى وهذه الأسرة تسكن الآن عيثات وبيصور وعالية وراس بيروس .

وكانوا يتولون إقطاع الغرب الأعلى إلى أن نزعت الإقطاعات سنة ١٨٦٠ ، ومنهم من تولى مناصب هامة مثل سعيد بك بن الشيخ فاعور الذى تولى قائمقامية جبل الدروز فى حوران ثم قائمقام راشيا من وادى التيم .

النكدية

ينتسب شيوخ النكدية إلى إحدى القبائل العدنانية التى كانت تسكن الحجاز فى الجاهلية ، وخرجت القبيلة مع جيش الفتح فى عهد أبى بكر الصديق ، واستقرت بمصر بعد أن حررها العرب من الروم ، ولكن سرعان مالبوا نداء الجهاد فسارت بطون منهم إلى إفريقية وبلاد المغرب (مراكش) واستقرت هذه البطون هناك وعرفوا بمراكش ببنى نكد ، وكانوا من أنصار الفاطميين عندما قامت دولتهم بشمال أفريقيا وجاء بعضهم مع الجيش الذى فتح مصر وبلاد الشام ، واستقروا بمنطقة حلب ، وفى سنة ٥١٤ هـ (١١٢٠ م) وفد عدد منهم إلى منطقة الشوف بلبنان واتصلوا بالأمير معن وصاروا من أعوانه وفى أوائل القرن الثانى عشر للهجرة (الثامن عشر الميلادى) آل أمر لبنان إلى حيدر الشهابى فقرب الشيوخ النكدية إليه وجعلهم من

أخصائه بحيث إن النكدية برياسة زعيمهم الشيخ على حاربوا بجانب الأمير الشهابى جيوش الوالى العثمانى محمود باشا أبى هرموش فى موقعة غزير ، وساروا معه إلى الهرمل وحضروا معه واقعة عين دارة ، ولذلك أقطعه الأمير الشهابى الناعمة وما يليها ولقبه بالأخ العزيز ، ولكن فى ولاية الأمير ملحم الشهابى حدث ما جعل الأمير يوقع الفتنة بين شيوخ النكدية فقامت بين بنى الأعمام النكديين حروب أدت إلى أن يأمر الوالى بإخراج النكديين من البلاد وأن يحرق منازلهم بعد هدمها، ولكن أمير حاصبيا توسط لهم لدى الأمير حتى عفا عنهم وأمر بإعادتهم إلى دير القمر وعمر ما هدم لهم ، ولكن فى سنة ١١٧٧ هـ (١٧٦٤ م) عاد شيوخ النكديين إلى الانشقاق ومحاربة بعضهم بعضاً وأخرجهم الوالى أيضاً من دير القمر فساروا إلى وادى التيم وظلوا هناك حتى صفح الأمير عنهم فعادوا إلى مقرهم ، ثم استعان بهم الوالى يوسف الشهابى سنة ١٧٧٥ م فى حرب الجزار باشا الوالى العثمانى ، ولكنهم هزموا فى هذه المعركة وأسر فى المعركة شيخان من النكديين هما الشيخ محمود بن أبى فاعور والشيخ واكد كليب ، وغضب النكدية على الأمير الشهابى لأنه لم يعمل على إطلاق سراح الأسيرين واتفقوا مع الجانبلاطية على خلع الأمير يوسف الشهابى وتولية أخويه الأمير سيد أحمد والأمير أفندى ، وجاء جيش الوالى الجزار لقمع الفتنة فهزمه النكديون فى معركة نهر الحمام ، وتوالت المعارك بين النكديين وجيوش العثمانيين إلى أن كانت سنة ١٨١٩ اتفق المشايخ اليزبكية والنكدية فغضب الأمير بشير الشهابى لذلك فخشى اليزبكية والنكدية غضبة الأمير فتركوا بلادهم وتجولوا فى بلاد الشام دون أن يستقروا فى بلد ما وأخيراً أرادوا النزول فى عكا فرفض واليها عبد الله باشا كما أن الأمير بشيراً أرسل إليهم قوة هزمتها اليزبكية والنكديون شرقى البقاع . ثم قام الدروز جميعاً بنصرة العثمانيين ضد ظلم حكومة إبراهيم باشا بن محمد على باشا سنة ١٨٣٩ م ، وانتقاماً من الأمير بشير الشهابى فقبض على كثير من زعماء دروز لبنان وأرسلوا إلى مصر فنفاهم محمد على إلى سنار بالسودان ثم عفا عنهم سنة ١٨٤١ وأعادهم إلى بلادهم . وفى سنة ١٨٤٤ فى الثورة التى قامت بين المارونيين والدروز جاء إلى الدروز نجدة من حوران وتدخلت فرنسا فى النزاع ثم بطل النظام الإقطاعى فعاش النكديون مثل غيرهم من الدروز فى طاعة الحكومات المختلفة .

بنو عبد الملك

ينتسب هؤلاء أيضاً إلى عرب الحجاز ووفدوا على لبنان مع الأمراء التنوخيين وسكنوا فى مقاطعة المناصف ثم انتقلوا إلى عاليه ثم إلى تباثر وأقاموا بها ، وقد اشترك زعيمهم جانبلاط سنة ١٧١١م مع الأمير حيدر الشهابى فى نزاعه مع الوالى محمود باشا أبى هرموش فى موقعة غزير وموقعة عين دارة ، فأقطعه الأمير حيدر مقاطعة الجرد ولقبه بالأخ العزيز ، ومع ذلك لم يذكر التاريخ شيئاً ذا قيمة عن هذه الأسرة .

بنو حصن الدين

هذه الأسرة من الأسرات التى أخلصت للعلم قبل كل شىء ، فقد وفد رئيسها حصن الدين من حلب سنة ٧٨٥ هـ (١٣٨٣م) إلى الأمراء التنوخيين وأصبح فقيه إمارتهم ، وورث ابنه عبد الله علمه ولقبه ، وفى سنة ٨٤١ هـ (١٤٣٧ م) ذهب ناهض الدين بن عبد الله بن حصن الدين إلى الشيخ عبد الله التنوخى العالم المعروف فأخذ عنه العلم واستوعبه فأعجب به الشيخ التنوخى وبعثه لينشر العلم فى منطقة الشوف ، وظل أفراد هذه الأسرة يتمتعون بالاحترام الدينى فى وسط الدروز حتى كان القرن الثامن عشر الميلادى وفيه عين الشيخ قاسم ابن عبد الله أحد أفراد هذه الأسرة مدبراً لأمور القاضى الشيخ قبلان ثم اتخذه الشيخ على جانبلاط مدبر أمور إقطاع الشوف كله ، وفى سنة ١٨٣٢ م تولى الشيخ قاسم بن حسين بن علم الدين مرتبة ناظر العقال . وكان له يد فى تخفيف حدة التوتر التى كانت بين الدروز والأمير بشير الشهابى ، وهكذا ظلت هذه الأسرة تتمتع بمكانة مرموقة لما اتجه إليه أفرادها من العلوم والتدين .

بنو علم الدين

أسرة تنوخية الأصل تنسب إلى علم الدين بن سليمان بن غلاب بن علم الدين الذى خرج على التنوخيين القيسية وصار أميراً على اليمنية بلبنان سنة ١٣٠١م،

وفى سنة ١٦٣٣ م هاجم الأمير على إقطاعات آل معن ثم هاجم الأمراء التنوخيين القيسية ، واستطاع سنة ١٦٣٧ م أن يكون والياً على الشوف بمساعدة والى دمشق ، ولكن أراد الأمير ملحم المعنى أن ينتقم منه ففر الأمير على إلى دمشق واستغاث بواليها الذى أرسل معه جيشاً أخاف الأمير ملحماً فهرب ، وخلى إقليم الشوف والغرب والمتن والجرد من السكان وصار على أمير الموقف بها ، وفى سنة ١٦٤١ م ترك الحمادية وهم شيعة اثنا عشرية (متاولة) وادى علمات وبلاد جبيل فاستولى الأمير على عليها ، ولكن اتفق آل معن والشهابية والحمادية ضده وهزموه وهو فى وادى التيم وقتل عدد كبير من رجاله وأصيب الأمير على بجراح أليمة ولكنه استطاع الوصول إلى دمشق فقبض عليه واليها وسجنه ، وظل فى سجنه إلى أن تولى أحمد باشا الكبرلى دمشق وطلب إليه أن يحارب القيسية ، فقدم إليه أمراء بنى علم الدين يناصرونه فولى الأمير محمد بن على وأخاه الأمير منصوراً مقاطعات الغرب والجرد والمتن ، ولكن فى سنة ١٦٦٤ م قام الأمير أحمد المعنى برجاله وحارب الأمير محمد بن على من بنى علم الدين وهزمه فى الشوف ودام القتال نحو سنتين حتى انكسرت شوكة اليمنية وكانت موقعة برج بيروت سنة ١٦٦٧ م بين الفريقين ، انهزم فيها اليمنيون وتفرقوا فى مقاطعات الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان ، وفر أمراء آل معن إلى دمشق واستقروا بها .

وفى سنة ١٦٩٣ سافر الأمير موسى مع الصدر الأعظم على باشا إلى إسلامبول واستعاد مكانته عند الباب العالى واستطاع أن يعيد إقطاعات بنى علم الدين فى الشوف والجرد والمتن والغرب وكسروان وجزين ، وأمره الباب العالى أن يقتلع بنى معن ، ولكن الأمير أحمد المعنى قدم بدروز بنى تيم إلى الشوف ، وقدم الأمير أحمد إلى والى صيدا رشوة حتى لا يساعد الأمير موسى فاضطر موسى إلى الفرار إلى دمشق ، وفى سنة ١٧٠٩ تولى الأمير يوسف اليمنى الشوف فسار إليها مع الأمراء من آل علم الدين ولكن الأمير حيدر الشهابى دهمهم وقتل جميع الأمراء من آل علم الدين وبذلك لم يعد التاريخ يذكر شيئاً عنهم .

بنو عماد

تنتسب هذه الأسرة إلى قبيلة كانت تسكن بجوار الموصل ثم رحلوا إلى الجبل الأعلى بجوار حلب وسكنوا قرية تليتا ثم انتقلوا بعد ذلك إلى مقاطعة العرقوب بلبنان فى القرن السادس عشر الميلادى وكان زعيمهم رجلاً يسمى عماداً ، وحدثت منازعات بينهم وبين الجانبلاطية انتقلوا بعدها إلى الباروك ، وفى سنة ١٦٦٠م تولى الشيخ سرحال العمادى جبل الشوف من قبل أحمد باشا الكبرلى بدلا من الأمير أحمد المعنى وأخيه الأمير قرقماز ، فأراد سرحال أن يشرف بمصاهرة المعنيين بأن يتزوج إحدى بناتهم فلم يقبلوا ، وأضمرها الأمراء المعنيون فى نفوسهم فلما عادت الإمارة إلى الأمير أحمد المعنى أمر بقتل جميع رجال آل عماد ، ولكن رجلا واحداً فقط من العماديين استطاع الفرار متنكراً إلى البقاع ، وعمل راعياً للبقر وسمى نفسه بعيزق ومن ذريته كثر عدد العماديين حتى أصبح لهم شأن فى الحركات الثورية التى كانت فى لبنان واستطاعوا أن يتزعموا حزب اليزبكية المناهض لحزب الجانبلاطية .

فى سنة ١٧١١ م اشترك العماديون مع الأمير حيدر الشهابى فى موقعة عين دارة ، وفى أواخر القرن الثامن عشر ظهر بينهم الشيخ قاسم بن عبد السلام الذى أتقن كثيراً من علوم مختلفة وكان فصيح اللسان قوى الحجة ، فاتفق أنه ناظر الشيخ على الجانبلاطى ، واشتدت بينهما المناقشة فأدت إلى مشاحنة بين الجانبلاطية والعمادية انقسم بسببها الدروز إلى طائفتين أو مشيختين : الجانبلاطية واليزبكية ، ولم يشترك فى هذا الانقسام شيوخ النكدية .

ومن العجيب أن هذا الانقسام بين طائفة الدروز فى لبنان عم ؛ فانقسم سكان لبنان جميعاً إلى جانبلاطية ويزبكية ، وفى سنة ١٧٩٤ حدث ما أدى إلى هروب العماديين إلى حوران ثم عادوا بعد أن أرضوا الوالى الشهابى بأموال ، وأصبح تاريخهم بعد ذلك نصب المكايد للجانبلاطية أو محاربة الشهابية أو محالفتهم والتقرب إلى الولاة

حتى جاء بعض شيوخهم إلى مصر وعلى رأسهم الشيخ على سنة ١٨٠٨ م للتقرب إلى محمد على ، وفى سنة ١٨٢١م تولى الشيخ على مقاطعة مرج عيون . وفى سنة ١٨٣٢م حاربوا مع إخوانهم الدروز جيش إبراهيم باشا فأمعن فيهم قتلا وهدم بيوت العماديين ثم حاربوه مرة أخرى سنة ١٨٣٥م فى وادى التيم ولكنهم هزموا ، وضعف بعد ذلك آل عماد .

آل أرسلان

هؤلاء هم سلالة القبائل العربية الذين عرفوا فى التاريخ بالمناذرة ملوك الحيرة ، وهؤلاء الأمراء الذين بعث بهم أبو جعفر المنصور من بلاد المعرة إلى لبنان لحماية السواحل من بغتات الروم ولقتال المردة ، وأقطعهم المنصور العباسى إقطاعات واسعة فى لبنان ، فانتشروا فى جبال بيروت وعمروها ، وما زالت الإقطاعات فى أيديهم وولاة العباسيين يقرونهم على هذه الإقطاعات إلى أن أنعم على الأمير النعمان بن عامر الأرسلانى بلقب أمير الدولة وأقره ماجور والى دمشق على ولاية بيروت وصيدا وجبلهما ، وأمر بالإقامة فى بيروت ليحافظ عليها من الروم ، والأمير النعمان هذا كان ممن لازم الجاحظ والمبرد وأخذ عنهما ، وفى سنة ٨٧٥ م هزم الأمير النعمان جحافل المردة على نهر بيروت هزيمة منكرة جعلت الخليفة العباسى المتوكل يكتب إليه يمدحه ويقره على ولايته له ولذريته من بعده ويرسل له سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود ، واستمر الأمراء الأرسلانيون على إقطاعات وكلما مرت الأيام ازدادت سطوتهم واتسع ملكهم واشتهر أمرهم حتى إنه فى سنة ٩٢٤ مر أحمد بن محمد بن أبى يعقوب بن هرون الرشيد بأسرته ببلاد لبنان فاستقبله الأرسلانيون بالحفاوة وأكرموه غاية الإكرام وطلبوا إليه أن يلقى عليهم شيئاً من علم الحديث الذى عرف به ثم تمت مصاهرتهم مع أسرته إذ تزوج الأمير المنذر سيف الدولة الأرسلانى بالسيدة كلثوم سليلة العباسيين ، وكان لهذه المصاهرة أثرها فى ازدياد نفوذ هذه الأسرة وتوطيد مكانتها عند الخلفاء العباسيين وعند الشعب ، وفى إمارة سيف الدين المنذر الأرسلانى فتح الفاطميون بلاد الشام ونشروا فيها عقيدتهم ، وأقر الفاطميون الأمراء الأرسلانيين

على ما بأيديهم من الولايات الإقطاعية وأصبحوا من شيعة الفاطميين ، مع أن الأمير سيف الدين المتوفى سنة ٣٦٠ هـ كان من أعلم أهل زمانه بمذهب مالك وله فى ذلك كتاب « تيسير المسالك إلى مذهب مالك » كما كان على علم تام بأصول مذهب الأوزاعى وله فى ذلك كتاب « الأقوال الصحيحة فى أصول مذهب الأوزاعى » ، وكان للأرسلانيين مشاركة فى الحروب التى قام بها هفتكين التركى ضد الفاطميين بالشام فقد استجاب بعضهم إلى هفتكين وحاربوا معه ، وحارب البعض الآخر فى صفوف الفاطميين فانقسم الأرسلانيون وحارب بعضهم بعضاً ثم اجتمع أمراؤهم على تقسيم إقليم الغرب بينهم على ألا يتعرض أحدهم للآخر ، ومع ذلك استمر النزاع بين الأمراء الأرسلانيين فيمن يتولى رياسة البلاد وإمارتها فكان يكيد بعضهم لبعض ويحارب بعضهم بعضاً وقد حدث فى سنة ١٠١٩م أن توفى الأمير أبو الفضل مطوع ابن تميم وترك أربعة أولاد هم : امرؤ القيس وهانى وموسى وبركات ؛ فانقسم أهل ولاية الغرب إلى قسمين : قسم يطلب إمارة ولده الأمير موسى والقسم الثانى يرى إمارة أبى الفوارس معضاد بن همام وأخيراً انتصر حزب موسى فتولى الإمارة إلا أنه اضطر بعد عام واحد بسبب الحروب بين الطائفة إلى أن يترك الإمارة إلى منافسه أبى الفوارس وفى الحروب التى قامت بين الفاطميين وبنى مرداس أصحاب حلب انضم الأرسلانيون إلى الفاطميين ، ولما قامت الحروب الصليبية أسرع الأمراء الأرسلانيون إلى نجدة إخوانهم العرب ؛ ففى سنة ١١٠٠م حاربوا جيوش بلدوين الفرنسى فى مغازة نهر الكلب وفى السنة التى تليها حاربوا جموع ريموند ، وفى سنة ١١١٠ م حاول بلدوين فتح بيروت وحاصرها براً وبحراً ودافع عنها الأمير شجاع الدولة ، فاضطر بلدوين إلى أن يستعين بالمردة وبالإمارات الصليبية فى شمال لبنان وفلسطين ، وتكاثرت جموع الصليبيين ، والأرسلانيون يدافعون عن بلدهم دفاعاً مجيداً ، واستمر القتال زهاء شهرين إلى أن سقطت المدينة بعد أن قتل عدد كبير من الأمراء الأرسلانيين ، وانتقم بلدوين من أهالى البلد الذين ساعدوا الأمراء فذبح عدداً كبيراً منهم وسبى النساء والأطفال ، وأحرق كل دور الأمراء فى الغرب ، وهرب عدد من أهالى الغرب إلى حوران ، وفى سنة ١١٢٦ م بدأ الأمير مجد الدين ينظم جموعه وأخذ يهاجم بهم الصليبيين حتى قتل فتولى الإمارة بعده أبو العشائر ناهض الدين بحتر بن عضد

الدولة الذى سار سنة ١١٥١ م وأوقع بالصليبيين هزيمة منكرة عند رأس التينة جعلت الصليبيين يسرعون بالفرار أمامه إلى بيروت وتحصنوا بها ، وشجعه هذا الانتصار على موالاة بغتاته على الإمارات الصليبية فى جميع بلاد الشام حتى خشى بأسه الصليبيون ، وفى سنة ١١٥٧م، توفى الأمير ناهض وتولى الإمارة ابنه الأمير على الذى ساعد نور الدين زنكى فى حروبه ، وفى حروب التتار — وخاصة فى موقعة عين جالوت — كان الأمير زين الدين صالح الأرسلانى يقود رجاله بجانب المماليك حتى تم الفوز للمسلمين ، كما اشتركوا مع الظاهر برقوق فى حروبه مع أعدائه وحضروا معه موقعة كسروان ، ولما نهض السلطان سليم العثمانى للاستيلاء على بلاد الشام ومصر ، انضموا إليه ، وكان نتيجة ذلك أن تولى الأمير جمال الدين الأرسلانى بلاد الغرب والمتن والجرد ، كما تولى الأمير قرقماز المعنى ولاية الشوف ولكن انضم قرقماز بعد ذلك إلى ثورة ابن الحسن فاضطر الأمير جمال الدين إلى محاربته وانتزاع ولاية الشوف فأصبح أميراً على جبل لبنان الجنوبى ، ومن ثم أعلن المعنيون أنهم قيسية انتقاماً من الأرسلانيين اليمنية ، وازدادت الجفوة بين القبائل القيسية واليمنية واشتدت الحروب بين الطائفتين حتى قاست البلاد كثيراً من هذه الحروب ، كما قاسى الأرسلانيون من حروبهم ضد الشهابيين الأمراء . وكان الدروز من القيسية أو اليمنية كلما حزب بهم الأمر يهربون دائماً إلى حوران ووادى التيم ثم يعودون بعد أن يصفو الجو ، وكان ولاة العثمانيين بالشام يعملون على إيقاظ الفتنة بين القيسية واليمنية ويؤلبون الدروز ضد الشهابيين ، وكثيراً ما هرب الأمراء الأرسلانيون إلى عكا أو إلى الجأ كلما نزلت بهم الهزائم ، وكثيراً ما كان يفد بعض الأمراء الأرسلانيين إلى مصر ليستعينوا بالخديويين بها ثم حدثت الفتنة التى أشرنا إليها من قبل بين الدروز والموارنة ، التى انتهت بالصلح .

هذه هى الأسرة الأرسلانية التى سجلت نسبها على طول التاريخ فكان كل أمير منهم يذهب إلى الثقات من العلماء والشيوخ الأجلاء ليكتب له سجلا بنسبه ، وقد نشر المرحوم شكيب أرسلان أحد فحول الأدب العربى فى العصر الحديث هذا السجل فى آخر ديوان شقيقه نسيب أرسلان وهو الديوان المعروف « بروض الشقيق فى الجزل الرقيق » كما اعتمد كل من كتب عن هذه الأسرة على هذا السجل التاريخى القيم .

من هذه اللمحة التاريخية عن أشهر أسرات الدروز على مر التاريخ نستطيع أن نتبين فى سهولة ويسر أن الدروز من أصل عربى خالص وأن كل ما قيل عن أنهم من أصل فارسى أو آرامى أو فرنسى أو إنجليزى هو كلام قيل لسبب استعمارى خالص ليبعدوا هذه الطائفة عن إخوانهم العرب وعن المسلمين خاصة . وها هو ذا التاريخ يحدثنا عن اشتراكهم مع إخوانهم العرب ومع إخوانهم المسلمين فى كل الحركات الحربية التى كانت ضد العرب والمسلمين ، فهل نغير التاريخ إرضاء للمستعمر الأجنبى ؟

وإذا تركنا الناحية التاريخية التى لا يدخلها الشك فى أصل الدروز العربى ، واتجهنا إلى دراسة المجتمع الدرزى الآن فسنجد أنهم يمتازون بخصال لا يعرفها إلا المجتمع العربى ، فالدروز لكونهم أقلية اضطروا إلى أن يكونوا شديدى المحافظة على تقاليدهم القديمة ولم يختلطوا بغيرهم من الشعوب وصاروا فى شبه عزلة مستقلين عن كل شىء يحيط بهم ، ولذلك ظلت أخلاقهم وعاداتهم هى نفس الأخلاق والعادات التى ورثوها جيلا بعد جيل دون أن تتأثر بمؤثرات خارجية ، وأهم ما نراه من ذلك فى مجتمعهم أنهم شديدو الحرص على المثل الخلقية التى يمتاز بها العرب القدماء، فالدرزى لا يعرف الكذب بل هو صادق فى كل كلمة يقولها وهو لا يعرف النفاق ولا الرياء ولا التظاهر بغير ما يضمر ، ولصدقه اشتهر الدرزى بالأمانة والحلم والصبر ، فهو لا يحاول أن يسىء إلى أحد ويتسامح مع من يسىء إليه ، ولكن عند ما يشتد به الأمر لا يجدى عفوه أو تسامحه شيئاً لصدق المثل « اتقوا غضب الحليم » ، ولصدق الدرزى نجده شديد الوفاء لدرجة أن الدرزى يضحى بنفسه فى سبيل وفائه لأصدقائه ، فهو شديد المحافظة على عهوده ومواثيقه مهما كلفته هذه المحافظة ، وهو ذو مروءة لا ينساها فى غضبه حتى إنه لا ينسى المروءة وهو يأخذ بالثأر ، ويتحدث كل من زار الدروز عن كرمهم الذى يزرى بكرم حاتم الطائى ، فإذا أنت دخلت منزل أحدهم فهو لا يقبل إلا أن يقف بين يديك لخدمتك حتى تدعوه إلى الجلوس ، ولا يقبل أن يتولى خدمه أو أتباعه أن يقوموا على خدمتك مهما كان مركزه الاجتماعى بحيث يخجل الضيف من كرم المضيف ويسر المضيف بتعذيب نفسه فى سبيل الضيافة ، ولا يعرف المجتمع

الدرزى شيئاً عن الزنا أو الخيانة الزوجية أو ما أشبه ذلك من المفاسد الاجتماعية ؛ فالمرأة الدرزية أعف نساء العالم وأشدهن طهارة ومحافظة على شرفها ، ولا يزال الحجاب إلى الآن مضروباً على نساء الدروز بل حجاب المرأة من صميم عقيدة الدروز .

فإذا نظرنا إلى هذه الأخلاق وتلك العادات فسنجد أنها أخلاق عربية خالصة لانكاد نجدها فى أى مجتمع آخر غير المجتمع العربى ، والكتاب جميعاً أشادوا بهذه المثل الخلقية التى يتمتع بها العرب دون سواهم ، وهذه المثل ظاهرة ظهوراً لافتاً فى مجتمع الدروز متأصلة فيهم تجرى مع دمائهم العربية فى عروقهم ، فهى ليست بأخلاق مكتسبة بل هى أصيلة عندهم مما يجعلنا نقول إن الدروز عرب يتمتعون بكل الخصال العربية ، وإذا نظرنا إلى تاريخ الدروز فى العصر الحديث والدور الذى قاموا به فى حركات التحرير العربى فسنجد أن عواطفهم وقلوبهم وسواعدهم الفتية إنما جعلوها لنصرة الوطن العربى والقومية العربية ، فالدور الذى قام به سلطان باشا الأطرش مع العرب لتحريرهم من السلطان العثمانى دور يمتاز ببطولة أشاد بها جميع الكتاب ، وإذا كان ملوك العرب الذين اشتركوا معه فى معركة التحرير هذه خانوا العروبة فى سبيل مطامعهم الشخصية وحرصهم على تقسيم الغنيمة بينهم فإن سلطان باشا الأطرش قام بدوره فى سبيل العروبة دون أن ينتظر جزاء ما عمل ، وها هو ذا مرة أخرى يثور ثورة عاتية ضد جيش الاحتلال الفرنسى ، وخرجت جيوش فرنسا بدباباتها ومدافعها الثقيلة وطائراتها وحاصروا رجال سلطان باشا الأطرش ودام الحصار طويلا دون أن ينال منهم الفرنسيون ، حتى إذا نفدت ذخيرة الدروز استطاعوا أن يوجدوا ثغرة بين الجيش الفرنسى وخرقوا الحصار ، ورحلوا عن بلدهم إلى إخوانهم فى فلسطين .

وبعد أن قامت الوحدة بين مصر وسوريا كان الدروز فى سوريا من أشد الناس ترحيباً بهذه الوحدة التى جمعت بين قطرين عربيين طالما كانا فى وحدة فى العصور السابقة ولو لم يفرقهما الاستعمار الأجنبى ومطامع بعض الحكام لظلا على وحدتهما طوال التاريخ .

من ذلك كله ندرك أن جبال لبنان هى معقل الدروز ، ومنه كانت الهجرة إلى وادى التيم وحوران إبان الأزمات التى كان يمر بها دروز لبنان بالرغم من أن وادى التيم عرف المذهب الدرزى قبل غيره من البقاع .

الفصل الثانى

طبقات المجتمع عند الدروز

يعيش الدروز الآن فى بقاعهم المختلفة فى لبنان وسوريا وفلسطين كما كانوا يعيشون من قبل ولم يبدءوا فى التطور إلا فى هذا القرن فقط ، يعيشون على الزراعة وما تنتجه الأراضى . ولم يهتموا بالتجارة أو الصناعة ، والنظام السائد فى المجتمع الدرزى هو النظام الإقطاعى الريفى الذى كانوا عليه منذ عدة قرون ، فالقرى خاضعة لشيخ القرية ، الذى يختاره الأمير ، وشيوخ القرى خاضعون للأمراء الذين يتوارثون الإمارة ، والجميع خاضعون للنظام الثيوقراطى القديم ولذلك يأبى الدروز منذ عصورهم الأولى أن يخضعوا إلا لمشايخهم فقط ولا يعترفون بسلطة أحد سوى أمرائهم ، وقد رأينا أنهم حاربوا مع أمرائهم لا لشىء سوى الخضوع لهذا الأمير وإطاعته طاعة عمياء ، ففى حروب الأمراء بعضهم مع بعض أو فى حروبهم مع الصليبيين أو للانتصار لأحد الولاة إنما كانوا يقومون بذلك كله طاعة لأمرائهم ، ولا يهتمون بمن يكون الوالى على الإقليم الذى هم فيه ما دام الوالى على اتفاق مع أمير مقاطعتهم ، والويل كل الويل للوالى الذى يتدخل فى شئونهم أو يغضب أميرهم .

وهم من الناحية الدينية ينقسمون إلى عقال أو أجاويد أى الذين لهم الحق فى معرفة شىء من العقيدة السرية ، وبين جهال أى الذين ليس لهم الحق فى معرفة أسرار الدين ، والعقال ينقسمون بدورهم إلى درجات ثلاث ففى مساء كل يوم جمعة يجتمع العقال فى أماكن العبادة التى تعرف بالخلوات (جمع خلوة) لسماع ما يتلى عليهم من الكتاب المقدس وبعد تلاوة المقدمات يخرج من الخلوة الطبقة الدنيا من العقال ، ثم بعد تلاوة بعض الرسائل البسيطة التى ليس بها تأويلات تخرج الطبقة الثانية بحيث لا يبقى إلا رجال الدرجة الأولى الذين لهم وحدهم الحق فى سماع الأسرار العليا للعقيدة ، أما الجهال فلا يسمح لهم بحضور هذه الخلوات أو بسماع شىء من الكتب المقدسة إلا فى يوم عيدهم وهو يوافق عيد الأضحى عند المسلمين .

على أن طبقة الجهال يسمح لهم بأن ينتقلوا إلى طبقة العقال بعد امتحان عسير شاق يقوم على ترويض النفس وإخضاع شهواتها مدة طويلة ، إذ لا يقبل فى طبقة العقال من يدمن التدخين مثلا ، فعلى المدخن من طبقة الجهال أن يقلع عن عادة التدخين إذا أراد أن يكون من طبقة العقال ، وهكذا نقول عن غير التدخين من الشهوات ، وقد يستمر الامتحان أكثر من سنة بأكملها حتى يثق الشيوخ بأحقية الطالب أن ينتقل من طبقة الجهال إلى طبقة العقال ، والعقال فى المجتمع الدرزى يعرفون بعمائمهم ولبس القباء الأزرق الغامق ويطلقون لحاهم ، على أن الذين يسند إليهم وظائف حكومية يباح لهم ترك هذه الملابس وارتداء الزى الذى يتطلبه منصبه الرسمى ، والنساء فى المجتمع الدرزى ينقسمن أيضاً إلى عاقلات وجاهلات مثل الرجال تماماً لا فرق بين المرأة والرجل ، والنساء العاقلات يلبسن النقاب وثوباً اسمه (صاية) على أن الغالب على نساء الدروز هو الحجاب على نحو ما ذكرنا .

وللدروز رؤساء دينيون فى كل مكان على رأسهم شيخ يلقب بشيخ العصر ، ويتولى منصبه بالانتخاب أو بالاتفاق بين الزعماء وكبار رجال الطائفة ، ولشيخ العصر أعوان فى كل قرية أو بلد هم شيوخ عقل محليون ، وشيوخ العقل فى لبنان ينقسمون إلى حزبين سياسيين هما الشيوخ الجانبلاطية والشيوخ اليزبكية ، بينما ينقسم الدروز عامة فى لبنان مدنياً إلى أمراء ومشايخ وعامة ، فالأمراء هم آل أرسلان والمشايخ هم الجانبلاطية واليزبكية .

وللدروز قضاة منهم يحكمون دائماً حسب الشريعة والتقاليد الإسلامية إلا أنهم فى بعض المسائل الخاصة يحكمون حسب التقاليد الدرزية ؛ فمثلا لا يجوز أن يوصى الدرزى بأملاكه التى ورثها عن جدوده وآبائه لأحد أبنائه دون الآخرين ، بل إن الأملاك الموروثة عن الأجداد ملك لكل أفراد الأسرة فلا يحرم منها واحد ، أما إذا كان الميراث مجدداً عن جهد شخصى فللمورث الحق فى منحه من يشاء من أبنائه ، والمرأة لا ترث شيئاً من دار أبيها . ولا يجوز لرجل أن يجمع بين زوجتين ، إذ لا يجوز له أن يحتفظ إلا بزوجة واحدة فإذا طلقت جاز له أن يتزوج غيرها ، وليس عند الدروز نظام المحلل ، فالزوجة إذا طلقت من زوجها لا يجوز أن تعود إليه بأى حال من الأحوال حتى لو تزوجت غيره .

والدرزى – على نحو ما رأينا فى تاريخه – من أشد العرب صلابة عود، شجاع مقدام وجندى باسل يخوض المعارك العنيفة دون خوف ولا وجل ، ولهذا ينتصر الدروز دائماً فى معاركهم مع أعدائهم مهما كان عدد الأعداء ، ومع ذلك كله لم يستطع الدروز أن يقيموا لهم دولة كما فعل الفاطميون فى المغرب أو الإسماعيلية فى فارس ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة عددهم .

الباب الثانى

ألوهية الحاكم

الفصل الأول

شخصية الحاكم بأمر الله

شهدت عصور التاريخ شخصيات استطاعوا أن يخلدوا اسمهم بما قاموا به من أعمال مجيدة فى خدمة الإنسانية عامة أو فيما عاد بالنفع على قومهم ، وقد يخلد اسم بعضهم بأعمال شاذة أصيبت الإنسانية بسببها بخسائر جسيمة أو بأضرار يتناقلها الناس مدى التاريخ ، ويصبح هؤلاء الشواذ مثلا تضرب للفساد ، والمصلح والمفسد سرعان ما يصبحان من أبطال القصص الخيالية أو القصص الفكاهية والنوادر ، وتصور هذه القصص جلائل أعمال المصلح ومآثره على قومه أو على البشرية ، كما تتحدث فى سخط وازدراء أو فى سخرية وتهكم بالمفسد ؛ ولا أكاد أعرف بين شخصيات التاريخ من جمع بين هذه المتناقضات فى حكم المؤرخين ، وأحاديث العامة مثل شخصية « الحاكم بأمر الله » الذى حكم رقعة واسعة من الأرض امتدت من المحيط الأطلسى إلى جبال طوروس وشملت فيما شملته جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا والجزيرة العربية ، ودان له بالإمامة عدد كبير فى العراق وفارس والهند ، فكان إمبراطوراً على أكبر دولة فى عصره وظل فى حكمه من سنة ٣٨٦ هـ حتى سنة ٤١١ هـ ، هذا الإمبراطور اختلف الناس فى شخصيته اختلافاً شديداً جداً ، فقد رفعه قوم إلى درجة الألوهية وهم الدروز ، واعتقد فيه قوم أنه إمام المسلمين وخليفة رب العالمين وسليل الرسول الكريم وهم الإسماعيلية الفاطميون ، وذهب أكثر المؤرخين إلى أنه كان شاذ الطباع مريضاً بالعقل يأتى بأعمال تضحك الثكلى تدل على الجنون وهؤلاء هم مؤرخو العرب والمؤرخون المسيحيون . ووقف المؤرخون المحدثون

منه نفس موقف القدماء فاحتار العلماء فى تكييف شخصية الحاكم بأمر الله » وخاصة من ناحية أعماله وتصرفاته أو سلوكه بصرف النظر عن ناحية منزلته الدينية بين الناس ؛ هل كان الحاكم بأمر الله عاقلا فى سلوكه ، وهل كان عادلا فى حكمه ، أم أن سلوكه كان نتيجة نزوات خاصة مصدرها مرض أصيب به فى صغره فكانت تأتيه من حين لآخر نوبات تشنجية عانى منها كثيراً إلى أن شفى ، ولكن هذا المرض أثر على عقليته فكانت أعماله وسلوكه نتيجة لهذا المرض ؟ وهل حقيقة أتى الحاكم بهذه الأعمال التى ينسبها إليه المؤرخون ، أو هى من خيال أعدائه ، أو من قبيل فكاهات المصريين الذين عرفوا بالنكت اللاذعة كلما رأوا عملا لا يعجبهم ؟ هذه أسئلة سنحاول الإجابة عنها فى هذا الفصل . ولن أتحدث عن التاريخ فى عصر الحاكم على نحو ما يفعله المؤرخون السياسيون لأن مثل هذا الحديث يخرج عن دائرة هذا الكتاب .

فى سنة ثلثمائة وخمس وسبعين من الهجرة (أى ٩٨٥ م) وقف الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى ينشد أخاه العزيز بالله قصيدة من قصائده الخالدة يهنئه فيها بمولود رزقه جاء فيها :

ليهن الملك مالكه الجديد ووارثه وإن رغم الحسود
أتيت به أبا المنصور فرداً تنير به الليالى وهى سود
يلوح عليه منك هدى وفضل ويظهر منك فيه حجاً وجود
حكاك كما حكيت أباك شبهاً كذاك الأسد أشبلها الأسود
وليد كانت الدنيا ترجى ولادته وترقبه السعود

كان هذا الوليد هو المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمى ، وهو إذن أحد أفراد هذه الأسرة التى عرفت فى التاريخ بخلفاء الدولة الفاطمية . وكان أبوه العزيز بالله ثانى من تولى الخلافة الفاطمية فى مصر كما أن ابنه المنصور الذى لقب بالحاكم بأمر الله هو أول من ولد فى مصر من الخلفاء الفاطميين . ويظهر أن المنصور كان مدللا فى صغره شأن الولد الأكبر للملوك وخاصة إذا كان هذا الابن هو الولد الوحيد لأبيه ، فالعزيز لم ينجب ولداً سواه ، وفتاة أخرى غير شقيقة تكبره فى السن ، ولذلك جعل العزيز حبه كله لهذا الولد ، ويذكر المؤرخون

أن العزيز لما علم باضطراب الأحوال فى الشام لقيام بعض الخونة والنفعيين باستدعاء الروم — أعداء العرب — لانتزاع الشام من أيدى الفاطميين ، ثم ما كان من قيام الإمبراطور باسيل الثانى بحملة على بلاد الشام ، وبفضل الخيانة استطاع أن ينتصر وأن يفتح عدة بلاد سنة ٣٨٥ هـ — لما علم العزيز بالله بذلك خرج بنفسه على رأس جيش كبير من مصر سنة ٣٨٦ هـ ولكنه مرض فى مدينة بلبيس فاستدعى ولده الوحيد وولى عهده المنصور ليكون بجانبه فى مرضه وليكون آخر من تقع عليه عيناه إذا حانت منيته ، ويروى المؤرخ ابن خلكان أن الحاكم بأمر الله قال لجليسه وصفيه المؤرخ المسيحى الذى يروى هذه القصة : « يامختار ، استدعانى والدى قبل موته وعليه الخرق والضماد ، فاستدنانى إليه وقبلنى وضمنى إليه وقال : وأغمى عليك يا حبيب قلبى . ودمعت عيناه ثم قال : امض يا سيدى والعب ، فأنا فى عافية . قال الحاكم : فمضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه ، فبادر إلىّ برجوان وأنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال برجوان "انزل ويحك ، الله الله فينا وفيك" فنزلت فوضع العمامة بالجوهر على رأسى وقبل لى الأرض وقال "السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته" وأخرجنى إلى الناس على تلك الهيئة » .

فهذه القصة تدل على أن العزيز بالله كان يؤثر ابنه ووحيده بالحب والعطف وأنه ترك الدنيا وابنه الحاكم لا يزال صبياً صغيراً فى الحادية عشرة من عمره لم تحنكه التجارب ولم يتلق من علم الحياة إلا أنه أمير أثير عند أسرته وحاشيته ينعم فى ترف الفاطميين وبذخهم ويرعاه غلمان الفاطميين من الصقالبة وغير الصقالبة الذين كثروا فى قصور الفاطميين ، وبصحبة أبناء كبار الدولة الذين استقدمهم الخلفاء ليربوا مع أبنائهم فى القصور بالقاهرة حتى يغرسوا فى نفوسهم حب الخلفاء والولاء لهم وللدولة حتى إذا كبروا تولوا المناصب الهامة ثقة من الخلفاء فيمن نشأ بينهم مع أبنائهم . هكذا نشأ المنصور بن العزيز الذى لقب بالحاكم بأمر الله عندما تولى عهد الخلافة فى شعبان سنة ٣٨٣ هـ وهو فى الثامنة من عمره ثم تولى الخلافة بعد موت أبيه مباشرة فى رمضان سنة ٣٨٦ هـ وهو فى الحادية عشرة من عمره ، ويظهر أن العزيز بالله كان يخشى الموت قبل أن يهيأ ابنه للاضطلاع بالملك

فعهد بابنه إلى ثلاثة من كبار رجال دولته الذين وثق بهم وهم : أبو الفتوح برجوان والحسن بن عمار الكلبى الكتامى والقاضى محمد بن النعمان بن محمد بن حيون المغربى ؛ فإذا نظرنا إلى هؤلاء الأوصياء رأينا أن كل واحد منهم يتمايز بخصال وفضائل تؤهله لأن يعهد العزيز بالله إليه بالوصاية بابنه ، فبرجوان عبد من عبيد الفاطميين أخلص لهم الإخلاص كله ، وأظهر أمانة فى خدمة مواليه حتى جعله العزيز على قصوره كما كان يتولى تدبير أمر البلاد كلما خرج العزيز للحروب بالشام ، فكأنه كان يمثل مع العزيز بالله نفس الدور الذى قام به عبد آخر من عبيد الفاطميين بالمغرب وهو الأستاذ جوذر فى عهد القائم بأمر الله والمنصور والمعز لدين الله ؛ كلاهما من العبيد الصقالبة (١) وكلاهما استطاع أن يصل إلى نفوس الفاطميين حتى إن الخلفاء كانوا يعهدون إلى كل منهما بالإشراف على خزائن القصور وعلى من بالقصور من الحريم والأبناء ، فبرجوان على هذا النحو كان من الثقات عند العزيز . أما ابن عمار فهو أحد أفراد أسرة الكلبيين الكتاميين الذين خدموا الدولة فى ثورة أبى يزيد مخلد ابن كيداد ، وثبتوا أقدام الفاطميين فى صقلية وتولوا حكمها باسمهم ، وكان الحسن بن عمار نفسه أحد القواد الذين هزموا الروم فى صقلية ولا سيما فى موقعة رمطة وغيرها من المواقع ، وأسهم مع جوهر الصقلى فى فتح مصر والشام ، وتولى زعامة قبيلة كتامة فى مصر وعرفت حسن بلائه فقربه الخلفاء إليهم حتى جعله العزيز أحد الأوصياء بابنه ، أما الثالث فهو القاضى ابن النعمان بن محمد بن حيون المغربى صاحب أصول فقه الشيعة الإسماعيلية الفاطمية بهذه المؤلفات العديدة التى وضعها حتى ولاه المنصور بالله الخليفة الفاطمى منصب قاضى القضاة بالمغرب وظل يتمتع بهذا المنصب حتى بعد انتقاله إلى مصر مع المعز لدين الله وتوفى بمصر سنة ٣٦٣ هـ فتولى ابنه محمد هذا المنصب الدينى الخطير بعد أبيه . هؤلاء هم الثلاثة الذين أودع العزيز أمر ابنه وأمر البلاد أمانة فى عنقهم ، غير أن هؤلاء الأوصياء كانوا على أهواء مختلفة ، كل واحد منهم اتخذ لنفسه سياسة تختلف عن الآخر ، فابن النعمان كان رجل دين قبل كل شىء فشاء أن يحافظ على نفوذه الدينى دون أن يتدخل فى سياسة الحكم وترك ذلك لابن عمار وبرجوان واكتفى بالقيام بواجبه الدينى

(١) يذهب ابن خلكان إلى أن برجوان كان من السودان بينما يجمع المؤرخون على أنه كان صقلبياً .

المذهبى ، وانتهز ابن عمار هذه الفرصة لاستعادة نفوذ قبيلته فى الدولة ، فالمعروف أن الدولة الفاطمية قامت على أكتاف قبيلة كتامة بالمغرب ، فكتامة حاربت الأغالبة وأسست الدولة الفاطمية وكتامة شدت أزر الفاطميين فى ثورة أبى يزيد ، وأعادت صقلية إلى أملاك الدولة ، وبكتامة فتح الفاطميون شمال أفريقية ومصر والشام ، ولذلك كان الكتاميون يدلون بذلك كله على الخلفاء الفاطميين إلى أن تولى يعقوب بن كلس الوزارة للعزيز بالله الفاطمى فعمل على إضعاف نفوذ كتامة وتقليم أظافرها ونجح فى ذلك إلى حد بعيد ، وها هو ذا ابن عمار الكتامى يتولى الوصاية على صبى صغير لا حول له ولا قوة ، فعمل على إعادة نفوذ قبيلته وبناء مجده الشخصى ودفعه كبرياؤه وغروره إلى أن يتشبه بالملوك فأمر بأن يترجل له جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ، وحجب نفسه إلا على نفر قليل من خاصته وزعماء قبيلته ، وتعدى ذلك إلى جوارى قصور الخلافة الفاطمية ففرقهن على زعماء كتامة ، كما وزع عليهم الأموال والوظائف ، فترفعوا عن الناس واعتدوا عليهم وكثر ظلمهم وفسادهم ، وضج الناس بالشكوى من سلوكهم ، وابن عمار يصم أذنيه ولا يقبل أن يستمع شكاوى الناس فى أحد أفراد قبيلته ، واشتد جبروته وطغيانه واستأثر بالسلطة كلها ، على أن برجوان قسيمه فى الوصاية كان هو من ناحيته يطمع أيضاً فى أن يقبض على السلطة فى يديه فأخذ يحيك الدسائس ويدبر المؤامرات ضد ابن عمار ، فجذب إليه زعماء الناقمين على ابن عمار حتى قوى بهم حتى إذا ما شعر بقوته أمر أصحابه بمهاجمة الكتاميين فى شعبان سنة ٣٨٧ هـ وأمعنوا فيهم القتل والجراح ، ولم يستطع ابن عمار أن يتغلب على خصمه لكثرة أعدائه وقوتهم ، فضعف أمره وغلت يده ، وقبض برجوان على السلطة كلها وسيطر سيطرة تامة على جميع مرافق البلاد المترامية الأطراف ، والخليفة الصغير لم يستطع أن يفعل شيئاً أمام قوة برجوان التى أخذت تزداد يوماً بعد يوم ، ولكن برجوان وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه ابن عمار ، فقد اصطنع الأتراك والصقالبة ليتقوى بهم فأغدق عليهم الأموال وملكهم الولايات وولاهم وظائف الدولة وسمح لهم بما سمح به ابن عمار للكتاميين فنفرت قلوب الناس منه وضجوا بالشكوى من سلوك الأتراك والصقالبة ، وكثر عدد خصومه وعملوا على الإيقاع به ، وكان برجوان وهو

فى قمة مجده يتوهم أن الحاكم لا يزال ألعوبة فى يديه ، ولم يفطن إلى أن الصغير بدأ يكبر ويفهم كل ما كان يحيط به ويدور حوله ، ولا سيما فى كل ما يتعلق بمنصبه وشخصيته ، فقد سمع الحاكم أن وصيه برجوان ينال منه فى مجالسه الخاصة ويطلق فيه لسانه فى مجالس شرابه ولهوه ، وعلم أنه يتعمد نقض أوامره ولا يأبه به ، ثم سعى خصوم برجوان إلى إثارة حفيظة الملك الصغير على وصيه بأن أدخلوا فى وهمه أن برجوان يعمل على التخلص من الفاطميين جميعاً ويملك هو البلاد كما فعل كافور الإخشيدى مع مواليه الإخشيديين ، وربما أغروا بعض المحيطين به بأن يحدثوه عن مركز الإمام الفاطمى وما يجب على الرعية من إطاعته طاعة عمياء ، حتى أوغروا صدر الحاكم ضد برجوان فقتله فى ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ . واستخلص أمواله ، وبذلك بدأ يستولى بنفسه على مقاليد الحكم وهو لا يزال فى الخامسة عشرة من عمره ، أى أن الحاكم اضطلع بمهام الحكم وهو فى هذه المرحلة الخطيرة من سنى حياته وهى مرحلة قلق نفسى لما يطرأ على جسم الإنسان من تغيرات جوهرية ، وعلماء النفس يجمعون على وجوب العناية بالشباب فى هذه المرحلة ، فما بالك بمن يدبر أمر مملكة واسعة يتربص بها الأعداء من كل جانب ، ويدين بمذهب يخالف ما عليه الناس ، ومخالفو عقيدته الدينية يتعقبون تصرفاته وأعماله ويحاولون تشويه كل عمل يصدر منه ، بدأ الحاكم أعماله بتغيير كبار رجال دولته وولاة الأقاليم ، وصرف كل من كانوا على صلة بوصيه برجوان الذين ضج من فسادهم الناس ، ثم جعل الحاكم لنفسه مجلساً ليلياً يحضره كبار رجال الدولة وأعيانها ليتناقشوا أمامه فى أمور الحكم وشئون الرعية ، فكان هذا العمل من أمجد ما قام به فى أوائل حكمه مما قرب القلوب منه ، واستبشر الناس خيراً بتوليه السلطة بنفسه ، ويروى المقريزى قصة طريفة تدل على ذكاء الحاكم ، ففى سنة ٣٩٠ هـ وبعد أن قبض على السلطة بعام واحد توفى جيش بن الصمصامة واليه على الشام ، فحضر ابنه بجميع تركته إلى القاهرة ومعه درج بخط أبيه فيه وصيته وثبت بما خلفه ، وجعل ذلك كله لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ولا يستحق أحد من أولاده منه درهماً ، وكان مبلغ ذلك نحو المائتى ألف دينار ما بين عين ومتاع ودواب ، وقد أوقف ذلك كله تحت القصر ، فأخذ الحاكم الدرج ونظره ثم أعاده إلى أولاد جيش وخلع عليهم . وقال لهم

بحضرة وجوه الدولة : « قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله . وما وصى به من عين ومتاع فخذوه هنيئاً مباركاً لكم فيه » ، فانصرفوا بجميع التركة .

وعرفت هذه القصة عنه وانتشرت بين الناس فأدركوا أن حاكمهم عف اليدين عما عند الناس ولا يطمع فى شىء من أموالهم أو متاعهم حتى لو جاءته هذه الأموال عن رضى أو عن وصية يوصى بها صاحبها ، وكانت الرعية قد شاهدت الظلم الذى حاق بها أيام وصاية ابن عمار وبرجوان كما كانت تعلم أن الملوك لا يتورعون عن سلب الأموال إشباعاً لمطامعهم الذاتية ، وأنهم لا يستحون من مصادرة الأموال واغتصاب الحقوق ، فكان لهذه القصة أثر عميق فى قلوب الشعب الذى ازداد حباً للحاكم لعفته عما فى أيدى الناس ، ولم يكن الحاكم عفيفاً عن أخذ الأموال فحسب بل عرف عنه أيضاً بعده عن اللهو والمجون وما ينصرف إليه من كان فى مثل سنه من الشباب فلم يشرب الخمر ولم يرتكب فاحشة ، وهى ناحية غريبة من ملك شاب فى بيئة عرفت بحب اللهو والمجون وفى أسرة ظهر فيها أمثال عمه الأمير تميم بن المعز لدين الله الذى سجل فى شعره فجوراً ليس بعده فجور ، فانصراف الحاكم عن متعة الشباب يدعونا إلى التفكير فى حقيقة نفسية هذا الشاب ، وربما كانت صفاته الجسمانية تزيد من حيرتنا فى أمره ، فقد كان فى بسطة من الجسم مهيب الطلعة ، جهورى الصوت ذا عينين نفاذتين حتى إن المؤرخين يذكرون أن من ينظر إليه كان يرتعد خوفاً من ضخامة جسمه ، فشاب فى مثل هذه القوة الجسدية وفى ظروفه التى أحاطت به ومن أبهة الملك وجلال الإمامة ووفرة الأموال والنفائس وكثرة الجوارى الحسان — شاب هذا شأنه يبتعد عن ما يأتيه أترابه من الشباب يجعل الباحث فى حيرة من أمره ، ولا نستطيع أن نقول إن ذلك كان زهداً من الحاكم فى متاع الحياة ، أو أن أعباءه الكثيرة التى ألقيت على كاهله صرفته عن طلب اللذة ، ولكن هناك من الأسباب الأخرى ما جعله يتخذ هذا السلوك . ومهما يكن من شىء فإن ذلك كله جعل الشعب يحب هذا الشاب ويقدر هذه الأخلاق الفاضلة ويلتف حوله .

على أن المؤرخين جميعاً على اختلاف نزعاتهم وأهوائهم جعلوا للحاكم شخصية شريرة بجانب هـذه الشخصية الخيرة ، جعلوه مثل الشخصية المزدوجة التى

فى قصة « دكتور جيكل ومستر هايد » إذ وصفوه بأنه كان يسرف فى سفك الدماء حتى لم يأمن شخص على حياته من أن تصيبه نزوة من نزوات شره فتطيح برأسه ، فقد رأيناه يبدأ حياة حكمه بقتل برجوان ثم قتل بعد عام واحد وصيه الثانى الحسن بن عمار (شوال سنة ٣٩٠ هـ) دون أن يذكر المؤرخون شيئاً عن سبب مقتله ، وذهب بعض المحدثين إلى أنه أراد أن يتخلص من كبار الزعماء والقادة وخاصة من زعماء كتامة ، وأن الحاكم شاء أن يستأثر بالسلطان كله ولا سبيل له إلى ذلك إلا بالتخلص من هؤلاء الزعماء والقادة، ثم نراه يقتل وزيره فهد بن إبراهيم وكان هذا الوزير على دين المسيحية وبالغت بعض الروايات المسيحية فى سبب قتله بأن الحاكم طلب إليه أن يعتنق الإسلام فأبى، فقتله وألقى بجثته فى النار فلم تحترق!! فلا شك أن هذه الرواية صدرت عن مسيحيين كرهوا الحاكم بأمر الله فجعلوا من فهد بن إبراهيم شهيداً ، وهى رواية لا نستطيع أن نثق بها ؛ وربما ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الوزير فهد بن إبراهيم استبد فى أعماله وأثرى ثراء فاحشاً على حساب الدولة والرعية وحابى المسيحيين وقربهم إليه وأسند إليهم المناصب الرئيسية فى الدولة واضطهد المسلمين ، فكان ذلك كله سبب نقمة الحاكم عليه فقتله ، أما أنه أصبح شهيداً ولم تحترق جثته فهى من خرافات المؤرخين وما أكثر ما نراه من خرافاتهم ! على أن الحاكم لم يقتل فهداً بسبب نصرانيته ، بل نراه يقتل كثيراً من المسلمين أيضاً ولم يقل أحد إن هؤلاء المسلمين أصبحوا شهداء ، والواقع أن سياسة الحاكم نحو رجال دولته كانت سياسة عجيبة لم يخش طائفة من الطوائف الدينية التى كانت فى المجتمع إذ ذاك ، ولم يقبل أن تسود طائفة على طائفة ، فالكل أمامه سواء، وبالرغم من أنه كان إماماً لمذهب دينى فلم يعمل على أن يترفع أصحاب هذا المذهب على سواهم من الرعية ، وامتد بطشه إلى التجار فكان يذهب بنفسه إليهم ويضيق الخناق عليهم، وكلما حاولوا حجز بضاعتهم عن الناس طمعاً فى زيادة الكسب كان مصير كل تاجر جشع القتل، بل يحدثنا المؤرخ ابن إياس أنه كان يمعن فى إذلال التجار الجشعين بأن يأمر خادمه مسعوداً بأن يأتى الفاحشة أمام الناس بكل تاجر يتلاعب بالأسعار ، وقال المصريون فى ذلك شعراً يتندرون به على الحاكم ، وأخشى أن تكون هذه الرواية من المبالغات التى عرف بها المصريون فى نوادرهم ونكاتهم ،

فشهوة الحاكم إلى سفك الدماء وشدة البطش والانتقام التى تحدث عنها المؤرخون وأصبحت مضرب المثل بين العامة إلى الآن هى عندى سياسة خاصة كان الحاكم يرى من ورائها إلى شىء فى نفسه ، حقيقة كان المجتمع فى هذه السنوات فاسداً يحتاج إلى يد حاسمة قوية لإصلاحه ، ويحدثنا المؤرخون أن جميع الطوائف والموظفين ارتدعوا وخافوا بطش الحاكم حتى إنهم طلبوا منه الأمان بعد الأمان ، والحاكم يصدر لهم سجلات الأمان ولكنه فى الوقت نفسه لم يقلع عن القتل والبطش ونحن ننقل هنا صورة من صور الأمان التى أصدرها الحاكم نقلا عن المقريزى :

« هذا كتاب عبدالله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين ، صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال ، لاخوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم إلا فى حد يقام بواجبه وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك ، وليعول إن شاء الله » .

هذا الأمان وأمثاله الذى أصدره الحاكم يدل على مدى خوف الناس من بطشه حتى التمسوا منه إصدار سجلات الأمان ، وقد بالغ المؤرخون فى عدد من قتلهم الحاكم حتى قيل إنهم ثمانية عشر ألف نفس وهو رقم خيالى ؛ نحن لا ننكر أن الحاكم أسرف إسرافاً شديداً فى عقاب الولاة والعمال ، وأنه لم يتسامح فى شىء حتى قال المؤرخ يحيى الأنطاكى « وأقام له من الهيبة فى نفوس الكافة لشدة سطوته وتسرعه إلى سفك الدماء وأنه لا يبقى على من صغر ذنبه وقل فضلا عن من عظم جرمه وجل » وهذا يدل على أنه أفرط فى معاقبة المخطئين حتى خافه الناس جميعاً ولم يستطع أحد أن يخرج عن الحد الذى رسمه له أو أن يعمل شيئاً يسىء به إلى غيره ، وإذا درسنا حالة المجتمع فى عصر الحاكم فسنرى أنه كان منحلا انحلالا تاماً ، فالثروة التى تدفقت على مصر فى عصر الفاطميين جعلت المصريين يسرفون فى البذخ والملذات، وأصبح الشعب مترفاً ميالا إلى الانسياق فى تيار المجون واللهو وقد ترك شعراء وكتاب هذا العصر آثاراً تدل على ذلك كله . بجانب الانقسام الدينى الذى كان شاغل المجتمع ، كان هناك أهل السنة والجماعة يقاومون تيار دعاة المذهب

الفاطمى ، وهؤلاء كانوا يشككون الناس فى عقائدهم ويحاولون جذبهم إلى المذهب الفاطمى ، والنصارى كانوا من ناحيتهم يعملون للمحافظة على أنفسهم ودينهم ، وكان اليهود من ناحية أخرى يدسون الدسائس وينفثون سمومهم بين الناس ، فكان المجتمع مضطرباً اضطراباً شديداً ، وكان فى حاجة إلى يد حاسمة تستطيع أن تجتث هذا الفساد بقوة وحزم ، وهذا ما فعله الحاكم بأمر الله ، ولم تكن قسوته هذه عن شهوة فى سفك الدماء أوحباً فى الانتقام الشديد إنما صدرت هذه العقوبات بعد أن رسمت سياستها فى دقة ونفذت فى دقة .

ويذكر المؤرخون أنه كان يأتى بأعمال لا تصدر عن رجل عادى عنده شىء من العقل ، فما بالك أن يصدر هذا العمل عن ملك مسئول عن شعبه وعن ممتلكات خارجية واسعة الأرجاء ، وكنت فى صغرى أقرأ ما كتبه المؤرخون عن هذه الأعمال ولا أصدقها وأعتبرها لوناً من ألوان التهكم بالحاكم بأمر الله والتشنيع به ولكنى بعد ذلك وجدت حديثاً عنها فى كتب الدروز المقدسة ، والتمس لها حمزة بن على بن أحمد مؤسس عقيدة الدروز والذى كان على صلة بالحاكم — تأويلا خاصاً ، فاعترف بأن الحاكم أطال شعره ولم يقبل أن يقصه، وأنه لبس الصوف واتخذ له جبة من الصوف لم يخلعها عن جسده سبع سنوات وأنه لم يتخذ من المطايا سوى الحمير يركبها بسرج غير محلى ، وكان يقوم بسياحة يومية إلى الصحراء، ويسير فى طريق واحد كل يوم لا يسلك سواه ، وكان وهو فى طريقه يقف على جماعة الصوفية يستمع إلى أغانيهم ويشاهد رقصهم ، أو يطلب من الركابية الذين معه أن يتصارعوا بالعصى والمقارع بين يديه، وبلغ به الأمر إلى أن يطلب من الركابية أن يكشفوا عن سوءاتهم لينظر إليها أو يجذبها بيده ، هذه أمثلة من سلوك الحاكم تحدث عنها المؤرخون ليثبتوا أنه كان مريض العقل شاذاً فى كل تصرفاته ، ولا أشك أن المصريين الذين عرفوا بالنكتة والفكاهة والمبالغة لم يتركوا الحاكم وهو يتصرف على هذا النحو دون أن ينالوه بألسنتهم وفكاهاتهم ووضعوا قصصاً من هذا القبيل للسخرية به وربما سمع المؤرخون هذه القصص فأودعوها كتبهم على أنها حقائق تاريخية فأصبح من الصعب على الباحث أن يفرق بين ما حدث فعلا والذى وضع ، ولا سيما ونحن نتحدث عن الحاكم الذى رأيناه شديد الوطأة على المفسدين يسفك الدم

للذنب الكبير والصغير ثم يسلك هو هذا السلوك العجيب الذى لا يمكن أن يصدر عن رجل عاقل ، وكما قلت من قبل ما كنت لأصدق مثل هذه الأفعال لو لم يسجلها حمزة بن على بن أحمد إمام عبادة الحاكم بأمر الله ونبى مذهبه ، فقد اتخذ منها دلالات على صدق ألوهية الحاكم ! ! ! وأن كل ما أتى به الحاكم هو رمز وإشارة وله تأويل باطنى لا يفقهه الناس ! وإذن نستطيع أن نقول إن كل ما صدر عن الحاكم من أعمال إنما كان بدافع واحد هو تأليهه ، فالحاكم كما رأينا تولى مقاليد الحكم وهو صغير السن ، وقد أحيط بهالة خاصة مما أسبغته العقيدة الفاطمية على أئمتهم ، فتأثر بهذه العقائد التى تجعل الإمام مثلا للعقل الكلى الذى جعلوا له أسماء الله الحسنى ، وقرأ أن بعض الفرق ألهت الأئمة ، فعلى بن أبى طالب وجعفر الصادق اتخذتهما بعض الفرق إلهين ، ودعاة الفاطميين فى فارس اتخذوا الأئمة الفاطميين أجداد الحاكم آلهة لهم ، ورأى حاشيته ورعيته يسجدون له كلما مر بهم، فشاء له طموحه وهو فى مثل هذه السن الصغيرة أن يكون إلهاً مثل الملوك الأقدمين الذين اتخذهم قومهم آلهة لهم ، واختمرت هذه الفكرة فى نفسه ولكنه لم يعلنها إلى الناس ، ولعله أسر بها إلى بعض الدعاة حوله أو إلى بعض النفعيين الذين يتسابقون إلى إرضاء غرور الملك لمنفعة شخصية تعود عليهم ، فتسابقوا إلى إشباع نزوته وتنميتها مع مرور الأيام ، فرسموا له هذه السياسة حتى يأخذ من أفعاله صفات الإله الخالق الذى وصف بها نفسه فى القرآن الكريم ؛ فالله تعالى هو المحيى المميت الرزاق الوهاب . . . إلخ ، فها هو ذا الحاكم يسرف فى القتل ليقال إنه مميت ويرزق الناس ويهبهم ليوصف بالرازق الوهاب ، ويعفو عن من يستحق القتل ليقال إنه محييه ، وهكذا كان كل سلوك الحاكم بأمر الله إنما كان بدافع من فكرة التأليه ، ولم يأت هذه الأعمال عفواً إنما رسمت له ، فلم يكن عنده شهوة القتل كما يذهب المؤرخون إنما هى فكرة الألوهية التى سيطرت عليه سيطرة تامة ، ويؤيد هذا الرأى ما أجده فى رسالة « السيرة المستقيمة » إحدى رسائل الكتب المقدسة للدروز فقد جاء فيها :

« لكنى أذكر لكم فى هذه السيرة وجوهاً قليلة العدد كثيرة المنفعة لمن تفكر فيها فأول ما اختصر فى القول ما فعله المولى سبحانه مع برجوان وابن عمار وهو يومئذ ظاهر

لا يراه العامة إلا على قدر عقولهم ، ويقولون صبى السن وملك المشارقة كافة مع برجوان ولابن عمار ملك المغاربة فأمر مولانا بقتلهم فقتلوا قتل الكلاب ولم يخش من تشويش العساكر والاضطراب ، وأما أمر ملوك الأرض فما يستجرى أحد منهم على مثل ذلك ثم أمر بقتل ملوك كتامة وجبابرتها بلا خوف من نسلهم وأصحابهم ، ويمشى أنصاف الليالى فى أوساط ذراريهم وأولادهم بلاسيف ولا سكين، شاهدتموه فى وقت أبى ركوة الوليد بن هشام الملعون وقد أضرم ناره ، وكانت قلوب العساكر تجزع فى مضاجعهم مما رأوه من كسر الجيوش وقتل الرجال ، وكان المولى جلت قدرته يخرج أنصاف الليالى إلى صحراء الجب ويلتقى به حسان بن عليان الكلبى فى خمسمائة فارس ويقف معهم بلا سلاح ولاعدة حتى يسأل كل واحد منهم عن حاجته ثم إنه يدخل فى ظاهر الأمر إلى صحراء الجب وليس معه غير الركابية والمؤذنين » إلى أن يقول مصنف هذه الرسالة : « إنكم ترون من أمور تحدث بما شاهدتموها من المولى ما لا يجوز أن تكون أفعال أحد من البشر لا ناطق ولا أساس ولا إمام ولا حجة فلم تزدادوا بذلك إلا عمى وقلة بصيرة » فهذا اعتراف من إمام دعوة تأليه الحاكم بأن أحداً من البشر لايستطيع أن يأتى من الأعمال ما قام به الحاكم لأن أعماله هى عمل إله ! ! !

ثم نقف بعد ذلك وقفة طويلة مع رسالة حمزة بن على بن أحمد الموسومة « بكتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل » فقد رأيت أن أنقل هنا نص هذه الرسالة دون تعليق لأنها بنفسها تغنى عن كل تعليق ! ! قال حمزة فى هذه الرسالة :

« أما بعد معاشر الإخوان الموحدين أعانكم المولى على طاعته ، إنه وصل إلىّ من بعض الإخوان الموحدين كثّر المولى عددهم وزكى أعمالهم وحسن نياتهم رقعة يذكرون فيها ما يتكلم به المارقون عن الدين الجاحدون لحقائق التنزيه ويطلقون ألسنتهم بما يشاكل أفعالهم الردية ، وما تميل إليه أديانهم الدنية فيما يظهر لهم من أفعال مولانا جل ذكره ونطقه ، وما يجرى قدامه من الأفعال التى فيها حكمة بالغة شتى فما تغنى النذر ، ولم يعرفوا بأن أفعال مولانا جل ذكره كلها حكمة بالغة، جداً كانت أم هزلا ، يخرج حكمته ويظهرها بعد حين . . . ولو نظروا إلى أفعال

مولانا جلت قدرته بالعين الحقيقية وتدبروا إشارته بالنور الشعشعانى لبانت لهم الألوهية والقدرة الأزلية والسلطان الأبدى وتخلصوا من شبكة إبليس وجنوده الغوية ولتصور لهم حكمة ركوب مولانا جل ذكره وأفعاله وعلموا حقيقة المحض فى جده وهزله ووقفوا على مراتب حدوده وما تدل عليه ظواهر أموره جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه .

فأول ما أظهر من حكمته ما لم يعرف له فى كل عصر وزمان ودهر وأوان وهو ماينكره العامة من أفعال الملوك من تربية الشعر ولباس الصوف وركوب الحمار بسروج غير محلاة لا ذهب ولا فضة ، والثلاث خصال معنى واحد فى الحقيقة لأن الشعر دليل على ظواهر التنزيل والصوف دليل على ظواهر التأويل والحمير دليل على النطقاء (الأنبياء) لقوله لمحمد" يا بنى أقم الصلاة وآت الزكاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر إن ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان عند ربك شيئاً محذوراً وانقص من مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير(١)" . والعامة يروون أن هذه الآية حكاية عن لقمان الحكيم لولده فكذبوا وحرفوا القول وإنما هو السابق وهو سلمان فإنما سمى الناطق لولده لحد التعليم والمادة إذ كان سائر النطقاء والأوصياء أولاد السابق المبدع الأول وهو سلمان . فقال سلمان لمحمد " أقم الصلاة إشارة إلى توحيد مولانا جل ذكره، وآت الزكاة يعنى طهر قلبك لمولانا جل ذكره ولحدوده ودعاته ، وأمر بالمعروف وهو توحيد مولانا جل ذكره ، وانه عن المنكر يعنى شريعته وما جاء به من الناموس والتكليف ؛ إن ذلك من عزم الأمور يعنى الحقائق وما فيها من نجاة الأرواح من نطق الناطق ؛ ولا تصعر خدك للناس الحد وجه السابق وتصعيره سترة فضيلته . ولا تمش فى الأرض مرحاً، فالمرح هو التقصير واللعب فى الدين . والأرض ههنا هو الجناح الأيمن الداعى إلى التوحيد المحض ، واغضض من صوتك يعنى بذلك اخفض وانقص واستر نطقك بالشريعة ، إن أنكر الأصوات يعنى الدعوة الظاهرة ، لصوت الحمير يعنى بذلك أشر كلام وأفحشه وأنكره نطق الشرائع المذمومة فى كل عصر وزمان" .

(١) الآية القرآنية محرفة تحريفاً شديداً جداً هنا فقد أضيفت إلى الآية الكريمة ألفاظ وحذف منها ألفاظ . (فلتراجع فى سورة لقمان آية ١٩) .

فأظهر مولانا جل ذكره لبس الصوف وتربية الشعر وهو دليل على ما ظهر من استعمال الناموس الظاهر وتعلق أهل التأويل بعلى بن أبى طالب وعبادته ، وركوب الحمار دليل على إظهار الحقيقة على شرائع النطقاء ، وأما السرج بلا ذهب ولا فضة دليل على بطلان الشريعتين الناطق والأساس ، واستعمال حلى الحديد على السروج دليل على إظهار السيف على سائر أصحاب الشرائع وبطلانهم . واستعمال الصحراء فى ظاهر الأمر وخروج مولانا جل ذكره فى ذلك اليوم من السرداب إلى البستان ومن البستان إلى العالم دون سائر الأبواب فالسرداب والبستان اللذان يخرج مولانا منهما ليس لأحد إليهما وصول ولا له بهما معرفة إلا أن يكون لمن يخدمهما أو خواصهما وهو دليل على ابتداء ظهور مولانا سبحانه بالوحدانية ومباشرته بالصمدانية بالحدين اللذين كانا خفيين عن سائر العالمين إلا لمن يعرفهما بالرموز والإشارات وهما الإرادة والمشيئة ، والإرادة هو ذو معة والمشيئة تاليه، فليس يعرفهما إلا الموحدون لمولانا جل ذكره ؛ ومن السرداب يخرج إلى البستان كذلك العلم يخرج من ذى معة إلى ذى مصة الذى هو بمنزلة الجنة صاحب الأشجار والأنهار ثم يخرج منهما إلى النفس ؛ فأول ما يلقى بستان برجوان وهو المعروف بالحجازى فلا يدخله ولا يدور حوله فى مضيه ، وهو دليل على الكلمة الأزلية ، ثم يمضى إلى البستان المعروف بالدكة وهو دليل على السابق وهو دكة العالم وعلومهم منه ، وهذا البستان المعروف بالدكة على شاطئ البحر كذلك علم التأويل ممثولة البحر ، والمستجيب للعهد إذا بلغ علم السابق ومعرفته حسب أنه قد بلغ الغاية والنهاية فى العبادة، وبستان الدكة مع جلالته ملاصق لموضع الفحشاء والمنكر دون سائر البساتين دليل على أن علم السابق واصل بالنطقاء الذين هم معادن النواميس الفانية الحشوية والأعمال الفاحشة الدنية ؛ والمقس دليل على الناطق وما فى المقس من الفحشاء والمنكر دليل على شريعته ، والنساء الفاسدات اللواتى فيه دليل على دعاة ظواهر شريعته وارتكابهم الشهوات البهيمية فى طاعته . ثم إنه علينا سلامه يخرج إلى الصناعة ويدخل من بابها ويخرج من الآخر . والصناعة دليل على صاحب الشريعة ، والصناعة ممنوعة من دخول العالم فيها فدخول مولانا جل ذكره فيها من باب وخروجه من اب دليل على تحريم الشريعة وتعطيلها .

ثم إنه علينا سلامه ورحمته يدور حول البستان المعروف بالحجازى وهو دليل على الكلمة الأزلية والدوار حوله بلوغ إلى الكشف بلاسترة تحوط بالدين . ثم إنه يبلغ إلى القصور وهما قصران عظيمان خرابان دليل على بطلان الشريعتين وخرابهما . ثم إنه يدخل من باب البستان المعروف بالمختص وهو دليل على التالى إذ كان التالى مختصاً بعلمه ، وأكثر العالم يميلون إليه هو هيولى العالم الجرمانى ، ومن الشيعة من يعتقد ويعبد التالى ، ومن الشيعة من يقول بأن التالى مولانا وهذا هو الكفر والشرك وإنما هو التالى الذى عجز الناس عن معرفته وهو الجنة المعروفة بالمختص متصلة بالجنة المعروفة بالعصار ، والعصار دليل على الناطق لأنه يعصر علم التالى فيخرج منه الحقيقة والتوحيد فيكتمه عن العالم الغبى ويظهر لهم الثغل وهو الكسب الذى لا ينتفع به غير البهائم . وكذلك البستان المعروف بالعصار وهو خراب من الفواكه والأشجار والرياحين والأثمار ، وبستان المختص عامر بالفاكهة والأزهار والرياحين والأشجار ومنه يخرج الماء إلى الحوض الذى تشرب منه البهائم ، والماء هو العلم ، والحوض هو المادة الجارى من التالى والدواب هم النطقاء والأسس وكذلك العالم يخرج من التالى إلى الأساس فى كل عصر وزمان والسابق ممد الناطق . وهذان البستانان بين المسجدين المعروفين بمسجد تبر ومسجد ريدان ، فمسجد ريدان محاذى بستان العصار ، ومسجد تبر محاذى بستان المختص ، ومسجد تبر دليل على الناطق والتبر دليل على الذهب والذهب دليل على ذهاب شريعته ، وهذا المسجد لم يصل فيه صلاة جماعة قط دليل على أن ليس للناطق ولا لمن تبعه اتصال بالتوحيد ، ومسجد ريدان دليل على حجة الكشف القائم بالسيف والعنف الداعى إلى التوحيد المنكر عند سائر العالمين ، فبإزاء الباطل الذى هو جنة العصار وهو دليل على الناطق حق يرفع وهو مسجد ريدان وهو ذو معة ، وبإزاء الحق الذى هو جنة المختص وهو التالى باطل يطلب فساده هو مسجد تبر وهو الناطق ، وريدان خمسة أحرف دليل على الخمسة حدود النفسانيين والنورانيين والروحانيين والجرمانيين والجسمانيين وهى ذو معة العقل الكلى النفسانى وذو مصة النفس الروحانى والجناح الربانى والأيمن الباب الأعظم وهو السابق والتالى معدن العلوم . وما من المساجد مسجد سقطت قبته وهوى بكماله غير مسجد ريدان فأمر مولانا سبحانه بإنشاء قبته وزاد فى طوله وعرضه وسموه دليل على هدم الشريعة الظاهرة على يد عبده الساكن

فيه[1] وأنشأ توحيد مولانا جل ذكره فيه بالحقيقة ظاهراً مكشوفة . ونزوله عن الحمار إلى الأرض وركوبه آخر محاذى باب المسجد دليل على تغيير الشريعة وإثبات التوحيد وإظهار الشريعة الروحانية على يد عبده حمزة بن على بن أحمد ، ونزوله إلى الأرض محاذى باب المسجد إشارة منه إلى عبده باب حجابه على خلقه ونزوله عن الحمار وركوبه آخر كان فى نفس أذان الزوال ، وصلاة الزوال دليل على الناطق ، وتغيير مولانا الحمار فى نفس وقت الأذان دليل على إزالة الظاهر . ثم إن مولانا لابد له فى كل ركبة من الإعادة إلى البستانين المعروفين بالمقس دليل على إظهار النشء الثالث الخارج من الكفر والشرك وهما الظاهر والباطن وهو توحيد مولانا جل ذكره . ودخوله إلى القصر من الباب الذى يخرج منه والسرداب بعينه دليل على إثبات الأمر وكشف الطرائق . وأما نزوله فى ظاهر الأمر إلى مصر وما شاهدناه ففيها تمكن الشيطان الغوى من قلوب العامة الحشوية والعقول السخيفة الشرعية مما يسمعونه من ألسن الركابية قدام مولانا بما يستقر فى عقولهم السخيفة من كلام الهزل والمزاح ولم يعرفوا أن فيه حكمة بالغة ، فأول مسيره إلى المشاهد الثلاثة وليس فيها أذان ولا إقامة ولا صلاة جماعة إلا فى الأوسط ، ثم إنه يسير إلى راشدة وهى أيضاً ثلاثة مساجد متفاوتات البنيان وأحسن ما فيها وأعلاها وأفضلها الذى يصلى الخطيب فيه يوم الجمعة وتصلى فيه خمس صلوات على دائم الأيام وهو الوسطانى وهو دليل على توحيد مولانا وإثبات خمس حدود علوية فيه ، والمسجدان اللذان معه متفاوتان فى البناء دليل على الناطق والأساس ، وكذلك الناطق فى ترتيب حدوده أفضل من الأساس والأساس أعظم شأناً فى ترتيب الباطن ورموزه من الناطق فى المعقولات والبيان ، فلما ظهر التوحيد زالت قدرتهما جميعاً ، وسميت راشدة لأن بمعرفته الحجة وهدايته والأخذ منه يرشد المستجيبون ثم إن علينا سلامه ورحمته يدور حول هذا المسجد الوسطانى فى ظاهر الأمر دليل على التأييد لعبده ، وقدام المسجد عقبة صعبة الصعود لمن يسلكها وليس إلى القرافة محجة إلا على هذه العقبة دليل على البراءة من الأبالسة أصحاب الزخرف والناموس . وأما ما يرونه من وقوفه فى الصوفية واستماعه لأغانيهم والنظر إلى رقصهم فهو دليل على ما استعمل من الشريعة التى هى الزخرف واللهو واللعب وقد دنا هلاكهم .

(١) المعروف أن حمزة بن على كان يسكن مسجد ريدان هذا .

وأما لعب الركابية بالعصى والمقارع قدام مولانا جل ذكره فهو دليل على مكاسرة أهل الشرك والعامة وتشويههم بين العالم وإظهار أديانهم المغاشم ويكشف زيفهم . أما الصراع فهو دليل على مفاتحة الدعاة بعضهم لبعض ، وقد كان للعالم فى قتل سويد والحمام عبرة لمن اعتبر لأنهما كانا رئيسين فى الصراع ولكل واحد منهما عشيرة تحميه وأتباع وهما دليلان على الناطق والأساس وقتلهما دليل على تعطيل الشريعتين التنزيل والتأويل والهوان بالطائفتين من أهل الكفر والتلحيد . وأما ما ذكره الركابية من ذكر الفروج والأحاليل فهما دليلان على الناطق والأساس ، وقوله أرنى قمرك يعنى اكشف عن أساسك وهو موضع يخرج منه القذر دليل على الشرك ، فإذا كشف عن أساسه وأخرج قبله أى عبادة أساسه نجا من العذاب والزيغ فى اعتقاده ومن شك هلك . . . إلخ » .

هذه الرسالة إحدى الرسائل التى تتضمنها الكتب المقدسة للدروز الذين اتخذوا الحاكم معبودهم ، وليس لنا أن نعلق على هذه الرسالة إنما أوردتها هنا لإثبات أن ماذكره المؤرخون فى كتبهم عن سلوك الحاكم لم يكن من خيال أو أنها وضعت للسخرية بالحاكم ، إنما هى أفعال اعترف بها داعيته ونبيه وأثبتها فى الكتب المقدسة التى يدين بها من اعتقدوا ألوهية الحاكم ، فنحن إذن مضطرون إلى أن نصدق المؤرخين فى كل هذه القصص التى أوردوها عن الحاكم ولا سبيل إلى إنكارها ، أما تأويلات حمزة بن على بن أحمد لكل هذه الأفعال فأترك التعليق عليها للقراء !! ولكنى أريد أن ألفت النظر إلى هذا الوصف التفصيلى لرحلات الحاكم اليومية فهى لم ترد فى أى كتاب آخر غير هذه الرسالة ، فهل يمكننا أن نقول إن الحاكم كان يقوم بذلك كله بالاتفاق مع حمزة وجماعته ليتخذوا منها وسيلة لوضع هذا المذهب الجديد الذى يؤله الحاكم ؟

لم تكن هذه الأفعال هى كل ما قام به الحاكم ، بل نراه يأتى بأعمال أخرى تتعلق بالعقيدة الفاطمية التى هو إمامها وكان عمله مخالفاً لما جرى عليه آباؤه وأجداده منذ قيام الدعوة الفاطمية ، فالفاطميون أنى حلوا أقاموا الأذان حسب العقيدة الشيعية « حى على خير العمل » وكان الفاطميون يصومون رمضان حسب حساب دقيق ليكون شعبان تسعة وعشرين يوماً ويتم رمضان ثلاثين يوماً ، وكان الفاطميون يسبون السلف الصالح وكان الفاطميون يهتمون بنشر تعاليمهم فكانوا يعقدون مجالس

التأويل التى عرفت بمجالس الحكمة التأويلية ، كل ذلك أمر الحاكم بإبطاله بسجل أصدره سنة ٣٩٣ هـ وربما يذهب الباحث إلى أن الحاكم يرمى بهذا السجل أن يذيع المساواة المذهبية بين الشيعة الفاطمية وبين جمهور أهل السنة ، ولكن ماذا نقول وقد رأيناه سنة ٤٠٠ هـ يصدر سجلا يلغى الزكاة ثم نراه بعد ذلك يلغى التقاليد التى كان عليها أبوه وجده بالذهاب إلى صلاة الجمعة وألغى الذهاب إلى صلاة العيدين ويبطل إرسال الكسوة الشريفة إلى الكعبة ، فكل هذه الأفعال لم تصدر منه إلا توطئة لإبطال فرائض الشريعة على نحو ما نراه فى الكتب المقدسة للدروز إذ نجد تأويلا لكل ذلك ، كما أن الإشارة فى كتب الدروز إلى النهى عن شرب الخمر تعطينا فكرة عن سبب محاربته للخمر ، كما أن تضييقه على حرية النساء كانت مدعاة لقول بعض المؤرخين إنه كان كلفاً بالنساء إلى حد كبير ولذلك حاربهن ، وهو رأى لا يخلو من غرابة بل يدعو إلى الضحك ! ! ولكن إذا قرأنا رسالة النساء فى كتب الدروز المقدسة ندرك سبب معاملته للنساء على نحو ما قاله المؤرخون.

أما معاملته لأهل الذمة من اليهود والنصارى ، فكانت معاملة دعت إلى دهشة المؤرخين لاضطرابها ، فحيناً كان يمنعهم من احتفالاتهم الدينية أيام أعيادهم ، ويلزمهم باتخاذ زى خاص ، بل تدخل فى عباداتهم إذ منع النصارى من تقديم النبيذ فى القرابين وأن لا يظهروا الصليب أو يدقوا الناقوس وأمر بهدم الكناس وبيع اليهود وصادر أملاكهم ، ثم نراه فى أواخر أيامه يعدل عن هذا كله وخاصة مع النصارى ؛ أما اليهود فكان يكرههم كراهية تامة ولا يطمئن إليهم فى قليل ولا فى كثير بل حاربهم محاربة لاهوادة فيها ، وفى الكتب المقدسة للدروز ما يفهم منه مدى كراهية الحاكم لليهود ومحاولته إبادتهم من بلاده ، فإذا نظرنا إلى سبب إعادة ما أخذ من النصارى وتغيير سياسته نحوهم فهو الاضطراب الذى حدث فى مصر بسبب ظهور دعوة التأليه ، فقد رأى الحاكم أنه أغضب أصحاب الدعوة الفاطمية ، وأغضب جمهور أهل السنة وأغضب النصارى وحقد عليه اليهود حقداً لاحد له ، وهذا كله أدى إلى قتله سنة ٤١١ هـ ، وعندى أن سبب قتل الحاكم هو مؤامرة يهودية للانتقام منه ، ولا عبرة بما قاله بعض المؤرخين من أن أخته ست الملك عملت على قتله لأنه اتهمها فى شرفها ، أو ما قيل إنه اختفى ، أو أنه دخل ديراً يتعبد فيه ، فكل هذه الروايات تضعف أمام المناقشة العلمية .

ولا نستطيع أن نختم هذا الفصل عن الحاكم دون الإشارة إلى أنه رزق بولده على سنة ٣٩٥ هـ ولكن الحاكم جعل عبد الرحيم بن إلياس ولياً لعهده سنة ٤٠٤ هـ بدلا من ابنه ، ونحن نعجب من هذا الاختيار الذى ليس له أساس من التقاليد المذهبية الفاطمية ، فالأصل فى الإمامة عند الفاطميين أن تتسلسل فى الأعقاب فتنتقل من أب إلى ابن ولا تنتقل من أخ إلى أخ وهذا الذى جعله الحاكم ولياً للعهد هو عبد الرحيم بن إلياس بن أحمد بن المهدى فهو من فرع بعيد جداً عن سلسلة الإمامة الفاطمية التى كانت فى نسل القائم بالله بن المهدى ، فهل لتولية عبد الرحيم بن إلياس علاقة بفكرة التأليه التى كانت تسيطر عليه منذ استولى على مقاليد السلطة ولا سيما أننا نرى فى الكتاب المقدس للدروز نصاً يدعو إلى النهى عن ذكر على ولد الحاكم الذى تولى الإمامة الفاطمية بعده باسم الظاهر ؛ ففى رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد « فالحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأن مولانا جل ذكره ابن العزيز وأبو على لأن مولانا سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان .

وأما من قال واعتقد بأن مولانا جل ذكره سلم قدرته ونقل عظمته إلى الأمير على أو أشار إليه بالمعنوية فقد أشرك » ومعنى هذا أن الحاكم تنكر لأبيه العزيز وتنكر لابنه على بتأثير فكرة الألوهية التى سيطرت عليه .

هذا ما أراه فى شخصية الحاكم بأمر الله فهو لم يكن مجنوناً كما قال المؤرخون ، بل كان شاباً صغير السن طموحاً إلى أكثر من الملك والإمامة ، ووجد فى كتب الفاطميين الإسماعيليين ما يحقق هدفه فعمل له بتأثير هذه الكتب ، كما وجد بعض الدعاة الذين ساعدوه على تحقيق هدفه ، فعملوا جميعاً لهذا الغرض وهو أن « الحاكم معبود » ، فكأنهم أرادوا أن يعيدوا إلى العالم النظام الثيوقراطى الذى كان معروفاً عند أكثر دول العالم القديم والذى يقضى بالاعتراف بالملك إلهاً مقدساً وقد انتقلت آراء الحكومة الثيوقراطية إلى فرق الشيعة الذين جعلوا حق الإمامة لعلى بن أبى طالب وأبنائه من بعده ، وغلا بعض الفرق فى هذا النظام الثيوقراطى بأن نادوا بألوهية على بن أبى طالب ، وألوهية جعفر الصادق أو ألوهية بعض الأئمة وها هو ذا الحاكم يتأثر بذلك كله ويطمح فى الوصول إلى درجة التأليه ، فوجد من يساعده إلى الوصول إلى ذلك .

الحاكم عند دعاة المذهب الفاطمى

فى الدعوة الفاطمية كان الحاكم بأمر الله إماماً من أئمتهم مثل غيره من الأئمة ، وهو من البشر مثل غيره من الأئمة والأنبياء ، ولكن مرتبة الإمامة وما يتصل بها من التأييد تجعله من الناحية التأويلية فى مستوى أعلى من مستوى غيره من البشر ، لأن الأئمة هم حجج الله على خلقه وهم الداعون إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه ، ولم يقل أحد دعاة الفاطميين فى مصر إن الأئمة آلهة بل هم مثل للعقل الكلى ولهذا يقول الشاعر فى إمامه :

لست دون المسيح سماه ربا   أهل شرك ولا نسميك ربا

بل جعل الفاطميون للأنبياء والأوصياء والأئمة مراتب ، فمرتبة النبوة أعلاها تليها الوصاية ثم تأتى مرتبة الإمامة فى آخر هذه المراتب ، أى أن الأئمة لم يبلغوا مرتبة الوصى أو النبى ، ولكنهم قالوا إن الأئمة بشر بهم فى التوراة والإنجيل والقرآن وأولوا آيات الكتاب الكريم إلى أنها أنزلت فى الأئمة دون أن يكون للحاكم شأن خاص ، إلا أننا عثرنا على رسالة مخطوطة خاصة بالحاكم ، هى «رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم» كتبها الداعى أحمد حميد الدين الكرمانى الذى يعرف أحياناً بحكيم الدعوة وبفيلسوف الدعوة المتوفى بعد وفاة الحاكم بعام واحد أى سنة ٤١٢ هـ . وقد استشهد الكرمانى بنصوص من الكتب المقدسة التوراة والإنجيل والقرآن فى البشارة بالحاكم وليس ذلك بغريب فى الدعوة الفاطمية التى تؤول الآيات فى الأئمة ، ثم التمس الكرمانى قوة التأييد للحاكم بما تحايل به من رموز الأعداد ، فالحاكم هو السادس عشر فى ترتيب الأئمة فى دور محمد ، فليس هو سابع الأسابيع وليس هو الرابع فى الأسابيع ، وهما اللذان لهما قوة التأييد أكثر من غيرهما ، ومع ذلك فقد جعل الكرمانى للحاكم قوة السابع والرابع ، ولما كانت هذه الرسالة فريدة فى موضوعها ولم تنشر من قبل ، رأيت أن أنشرها فى هذا الكتاب ما دمنا نتحدث عن الحاكم بأمر الله ، وهذه الرسالة وثيقة تاريخية هامة إذ ترينا فى مقدمتها كيف

أن الكرمانى عندما وفد على مصر سنة ٤٠٨ هـ وجد اضطراب الأحوال واختلاف الدعاة بسبب ظهور هذا المذهب الجديد الذى يدعو إلى تأليه الحاكم ، فأراد أن يثبت قلوب المؤمنين بأن الحاكم إمام وأن الكتب السماوية بشرت بإمامته ، وأن الحاكم يدعو إلى توحيد الله وتنزيهه وإلى الصراط المستقيم ، ويقيم شعائر الدين الإسلامى فإنه ثمرة دوحة النبوة فكان عليه أن يثبت أصول هذه الدوحة ، كل ذلك إنما قصد به الكرمانى إلى دفع هذه الآراء الجديدة التى طرأت على المجتمع فحدث بسببها هذا الاضطراب الذى أشار إليه ، حقيقة لم يصرح الكرمانى بألوهية الحاكم أو غيره من الأئمة ولكنه جعل للحاكم منزلة أعلى من منزلة البشر ، والكرمانى فى ذلك مثل غيره من دعاة الفاطميين الذين أرادوا الغلو فى أئمتهم ولكنهم كانوا حريصين أشد الحرص على عدم التصريح بذلك ، بل داروا حول فكرتهم والتمسوا لها تأويلات خاصة ، ولكن النتيجة النهائية لفكرتهم هى التأليه .

رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله

لحجة العراقين أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب الأرباب ، ومالك يوم الحساب ، الذى جعل السماء سقفاً محفوظاً ، وما بينها وبين الأرض بعين الفناء ملحوظاً ، فحكم بأن لا يبقى إلا وجهه الكريم ، جعل الأفلاك على اختلافها مجذور سبعة ، والشريف منها مقصوراً على تسعة ، دلالة على الينابيع من أرباب التأييد ، وإشارة بها على الميامين من أركان التوحيد ، الذين عمروا طرق الهداية بإقامة الدعاة ، ورعوا عباد الله بالكفاة الرعاة ، وأحمده وأشكره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مكون الأكوان ومبدئها ومصرم الأزمان ومفنيها ، وأشهد أن الأبطحى المدنى محمداً عبده ورسوله أضاء عالم الدين بالأنجم الزاهرة ، وأشرق بمطالعه بالأنفس الطاهرة ، فوعظ وبشر وأنذر ، وفارق العالم وقد قضى حق الرسالة بإقامة سننها فى نصب الإمامة فصلى الله عليه صلاة تنمو وتزيد ما أحاط عقل بمعقول وانتهت علة إلى معلول ، وعلى وصيه وقاضى دينه وهادى أمته والصابر على ألم المضض وفاء بعهد الله عز وجل على بن أبى طالب والأئمة من ذريتهما السلام .

وخص الله الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين من أطايب سلامه ونوامى تحياته بما يعلى جده فى العالمين ويرفع منزلته على الباقين إنه قدير .

(أما بعد) فإنى لما وردت الحضرة النبوية مهاجراً ، وللسدة العلوية زائراً ، ورأيت السماء قد أظلت بسحاب عميم ، والناس تحت ابتلاء عظيم ، والعهد فى الرسوم السالفة قد نقض ، وعن أولياء الدين بما كسبت أيديهم قد أعرض ، والرسم فى عقد مجلس الحكمة جرياً منهم بالإحسان قد رفض ، والعالى قد اتضع ، والسافل منهم قد ارتفع ، وشاهدت أولياء الدعوة الهادية بسط الله أنوارها ، والناشئين فى

عصمة الإمامة وأولى ولائها قد حيرهم ما يطرأ عليهم من هذه الأحوال التى تشيب لها النواصى ، وبهرهم ما تجدد لهم من الأسباب التى لا يهلك بها إلا أولو النفاق والمعاصى ، وهم يومئذ يموج بعضهم فى بعض ويرى كل منهم صاحبه بفسق ونقض تتلاعب بهم الأفكار الردية وتتداولهم الوساوس المردية ، ثم لا يعلمون ما أظلهم من الدخان المبين ، ولا ما ألم بهم من الامتحان المستبين ، فصار البعض منهم فى الغلو مرتقين إلى ذراه ، والبعض فى النكص على أعقابهم تاركين عصمة الدين وعراه ، والقليل منهم قد تزعزع أركان اعتقادهم وما قبلوه من الدين باختيارهم وارتيادهم ، وهم على شفا انحلال وحؤول واختلال وأعناق أولى الطرفين من الأبالسة إلى اختلاسهم ممتدة ، وهمها فى اصطيادهم عن اعتقادهم محتدة ، والآحاد منهم قد رضوا من أنفسهم لأنفسهم ، إذ تخلصت نفوسهم مكتفين بقول الله تعالى: « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » (آية ١٠٥ سورة المائدة) .

حملنى فرط الشفقة فى الدين على أن أناجى الإخوان المستضعفين من دون من فسد جوهره بما حدث فيه من المقال ، وانعكس عنصره بما تشرب قلبه ماء المحال فصار كالفضة المحرقة التى لا تعود إلى فضيتها بصناعة ، وإلى حالتها الأولى وإن تعنى بفضل جهد واستطاعة ، بما يكون تقوية لقلوبهم وتثبيتاً لأقدامهم من بيان إمامة الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وصدقها ، والبشارات الواردة من الأنبياء عليهم السلام وإشاراتهم بحقها ، وما ينجز الله تعالى له وعده ، ويقرنه به من الأمر فى قبله وبعده ، والكلام على الأسباب العارضة وأنها ليست إلا لما يريد الله من تصديق قول أنبيائه بقيام ما قالوه مقام الصدق ، وما هو إلا إمارات تقوم مقام النص بأنه ولى الحق ليزدادوا إيماناً بالله تعالى وبوليه عليه السلام إيقاناً ، وأن أجعل ذلك فى رسالة جامعة ففعلت ، وكتبت هذه الرسالة ، وسمتها « برسالة مباسم البشارات » لكونها بما تجمعه من البشارات والإرشادات وحسن المعانى وما توافق به من فصولها للعدد الشريف من السبع المثانى ضاحكة المباسم شاهرة المواسم وهى تشتمل على أربعة عشر فصلا ، وبالله التوفيق وبه أستعين فى إتمامها وبلوغ المراد فيها ، موقى من الذلل إنه قدير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(الفصل الأول) نقول إن إمامة الأئمة عليهم السلام ليست متعلقة بإثبات

المثبتين إياها ، فتبطل إذا لم يثبتوها بل إمامتهم أثبتها المثبتون ، أو لم يثبتوها فهى ثابتة والله سبحانه أثبتها لكن للدالين عليها والداعين إليها ، وإن كانوا وسائط فيما بين الأئمة وبين الأمة فضيلة لا تنكر ومثوبة عظيمة لا تكفر يستحقونها من وجهين اثنين : أحدهما هو دفع سيئة وثانيهما هو إيلاء حسنة ، وكلا الوجهين يكسبان الفضيلة والأجر ؛ فأما الوجه الذى هو دفع السيئة فهو أن جوهر الإنسان أجل الجواهر الطبيعية شرفاً فى تهيئته لقبول مايفاض عليه من المعارف وأعظمها استعداداً للتصوير مما يلقن ويعلم من المعالم وهو فى بدء وجوده كالشىء الذى لا صورة له أو كالعريان الذى لا لباس له ، مشتاق إلى المعارف التى هى الصورة ، محتاج بالقياس احتياج العريان إلى اللباس ، وهو فى تلك الحالة يستمد صور الأشياء والمبادئ بحسب ما يتفق له من المعلم الهادى فإن كان موفقاً من الله وله سعادة واتفق أن يكون المعلم موحداً خيّراً أخرج بمايستمليه منه موحداً وإن كان بالعكس فبحسبه ، ولذلك قال النبى (صع) : « كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ، دالا بذلك على أن جوهر الإنسان فى الأصل إنما أخرجه الله تعالى إلى الكون ليكون صالحاً موحداً شريفاً فاضلا وأنه بعد الولادة صالح ما لم يهود أو ينصر أو يمجس ، وذلك أن الأنبياء (ص) دعوا الناس بجميع ما جاءوا به من الكتاب المبين ورسوم الدين إلى توحيد الله تعالى وطاعته وعبادته لا إلى غيرها فجعلوا لذلك طريقة من لزمها لم يلق إلا خيراً ، وله صراط مستقيم من تعداه لم يكتسب إلا كفراً فلما تعدوا ما رسموه ، وخالفوا الأمر فيما نصبوه ، واختلف الناس بتركهم الطريق والطاعة لله تعالى من حيث أمر ، حدث منهم اليهود والنصارى والمجوس ، فلما حدث من الأمم التحزب بالقعود عن طاعة أولياء الله تعالى ، وحدوده فى الأعصار الخالية ، وكان دور محمد (ص) آخر أدوار أصحاب الشرائع بانتهائه إلى الكمال الذى لا يحتاج معه إلى تغيير بزيادة أو نقصان وجب أن يؤدى لكونه كاملا صورة ما تقدمه من الأمور كما أدى الإنسان لما كان النهاية إليه فى الخلقة والكمال فى ذاته صورة ما تقدمه من الموجودات ، وكان جامعاً له ولذلك قال النبى (ص) : « كائن فى أمتى ما كان فى الأمم الخالية » وقال : « كائن فى أمتى ما كان فى بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة حتى كأنهم لو دخلوا

جحر ضب لدخلتموه » فافترقت الأمة المسلمة بعد نبيها كما افترقت الأمم الخالية بتركها ما أمر الله به من طاعة من اختاره لهدايتهم فصارت كل فرقة بما اعتقدته مشابهة لأهل كل نحلة خارجة عن الإسلام من الذميين والكافرين وحدث عن ذلك فى الأمة المسلمة اليهود والنصارى والمجوس بمشابهتهم إياهم فى اعتقادهم (١٣) تصديقاً لقول النبى (ص) حين قال : وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ؛ فكان المشابه لليهود من المسلمين من ضاهاهم فى تركه طاعة حدين عظيمين من حدود الله تعالى مثل طاعة عيسى (ص) ومحمد (ص) وإقرارهم موسى (ص) ومن تقدمه من النبيين (ع) وهم النواصب ، الذين تركوا فى الإسلام طاعة حدين عظيمين من حدود الله مثل طاعة الوصى وإمام كل زمان وأقروا بمحمد (ص) ومن تقدمه من النبيين (ع) ومن يولد لهم يهودونه بمعنى يبغضون إليه اعتقاد الولاية للوصى والإمام (ع) كاليهود فى معنى عيسى ومحمد (ص) والمشابه للنصارى من المسلمين من ضاهاهم فى تركهم طاعة حد عظيم من حدود الله تعالى مثل طاعة محمد (ص) وإقرارهم بحدين عظيمين وهما موسى وعيسى (ص) وبغيرهما وهم القطيعة الاثناعشرية الذين تركوا فى الإسلام طاعة إمام الزمان (ع) وأقروا بمحمد (ص) وولاية على بن أبى طالب أو من تقدمهما من الأنبياء والحدود (ع) ومن يولد لهم ينصرونه بمعنى يصورون له ما هم فيه من البغضاء لطاعة إمام الزمان الذى هو تمامية طاعة الله تعالى كما يفعل النصرانى بولده فى باب محمد (ص) والمشابه للمجوس من المسلمين وضاهاهم فى كونهم لا من اليهود ولا من النصارى ولا من المسلمين هم المعتزلة الذين لا يعبدون الله باعتقاد أهل الظاهر ولا باعتقاد القطيعة ولا باعتقاد المطيعين لصاحب الزمان من المؤمنين كما لا يعتقد المجوس ، لا اعتقاد اليهود ولا اعتقاد النصارى ولا اعتقاد المسلمين ومن يولد لهم يصورونه بصورهم كما يفعل المجوسى بمن يولد له ، ولما كان جوهر الإنسان أشرف الجواهر فكانت السيئة التى تطمس ضياءه وتهلك نوره وبهاءه تبعد من الله ومن رسوله اعتقاد إمامة من لم يجعل الله له نوراً وجعله وتابعيه قوماً بوراً ، كان منع الداعى ذلك الجوهر من اجتراح هذه السيئة التى تكسف باله ، وتعيد كأرذل الأشياء حاله وهى منه كالصدأ فى الحديد والكسر فى الدر والقتل فى النفس وصده إياه عن اعتقادها بأن يبين بطلانها وما يكون للأنفس باعتقادها من

خذلانها هو دفع السيئة عنه ، وإذا كان ذلك دفع سيئة كان الأجر عليه واجباً يستحق به الفضيلة ، وأما الوجه الآخر الذى هو إيلاء حسنة هو أن جوهر الإنسان لما كان فى كونها متهيئاً للقبول على ما ذكرناه وكانت الحسنة التى تكسب النفس الشرف والرفعة والزلفة وهى منها كالحياة فى النفس والصحة فى الجسم والجلاء فى المرآة اعتقاد إمامة من جعل الله فيه شرفها وأعلى درجته بما أولاه من مجدها وجعله وسيلة تنال الخيرات بسببها بكونه سبباً إلى الاتصال بالله تعالى من جهة حدوده كان إفادة الداعى ذلك الجوهر هذه (٣ب) الفضيلة التى يصير بها و باعتقادها موسوماً بوسم الله ومرقوماً برقم أرباب التأييد من جهة الله فيكون فى أفق العالم النورانى الذى هو مقر الأنبياء والأوصياء والأئمة الأبرار والعباد الصالحين الأخيار وأصحاب المعاد مقبولا مكرماً وإفاضة النعمة عليه بأن يعلمه إياها ليعتقدها هو إيلاء الحسنة وإذا كان ذلك إيلاء حسنة كان الأجر عليه واجباً يستحق به الفضيلة فلذلك قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » والحسنة لما كانت على ولاية الأئمة (ع) كانت لمن يعتقدها باباً يؤديه إلى معرفة الحدود العشرة فى العالمين نفسانياً وجسمانياً الذين هم ملوك القدس والتأييد وينابيع الحكمة والتوحيد فترتع نفسه فى أزهار العلوم وتشرف بها على توحيد الحى القيوم ، وإذا كان الداعى يستحق على فعله ذلك الأجر والمثوبة والدرجة والرفعة فبالحرى أن يصرف من رفع الله ووليه قدره الفكر إلى ما يحفظ به عقائد المؤمنين من تبصيرهم وتقوية منتهم وتثبيت أقدامهم على طاعة الله تعالى وطاعة وليه محتسباً للأجر من جهة ولى نعمته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم جعلنا الله وجماعة المؤمنين ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(الفصل الثانى) نقول إننا و إن كنا قد دللنا على أمر الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين (ص) فى إمامته وكونه صادقاً فى سفارته فى كتابنا المعروف بالمصابيح (فى الإمامة) بالواجب وذكرنا فى الرسالة الكافية رداً على الهارونى الكاذب زيادة على ما أوردناه تقسيماً للأمر فى إمامته حتى خلص إلى القسمة التى لا شك فيها بقولنا إنه لما كان الإمام إمامين إمام حق وإمام ضلال ، وكان إمام الضلال إما أن يكون منتصباً من تلقاء ذاته أو منصوباً من جهة الناس و بطل

أن يكون الإمام (ع) ممن نصبه الناس أو انتصب من تلقاء ذاته ثبت بكون الإمام إمامين إمام حق وإمام ضلال وبطلان إمام الضلال أنه إمام حق يهدى بأمر الله ، وعارضنا على أنفسنا فى ذلك وبرأنا ساحتنا من قضية المعارضة بما نطق ببطلانها وأسفر عن افتراض طاعته (ع) معها ، فنريد أن نستشهد لإخواننا حرسهم الله من الدلائل على أنه من أيام الله تعالى يوم بشر به النبيون واستبشر به الأولياء المخلصون وهو يوم الفتح الذى تمنى الكون فى زمانه القرون الخالية وتصبح أتباعه معه وهم المغبوطون عند الأمم السالفة وتمسى فيه أعداء الله على وجوههم غبرة ترهقها قترة وذلك بأنهم كفرة فجرة ما يكشف لهم ما أظلم ويبين لهم ما استبهم ليزداد به ثقة من عرف ويتقوى به اعتقاد من استضعف فبقوة الله وبقوة وليه (ع) نقول إن الأكوان فى العالم من شأنها لما كانت (١٤) لا تكون إلا بزمان أن تكون فى بدايتها ضعيفة ناقصة فتتحرك بالزمان والوسائط إلى القوة والتمامية التى هى عين الغرض فيها وفى حالها تلك وانتقالها من الضعف إلى القوة ومن الخسة إلى الرفعة تنطوى عليها أسباب الضعف والقوة حتى تكون تارة ضعيفة ناقصة وتارة قوية تامة ولما كانت الشرائع والرسوم والوضائع من الصنائع النبوية وكانت لاستجلاب الخيرات ما وضعت ولدفع المضرات وكانت مقترنة بالزمان وغير منفكة مذ لزمها ما يلزم غيرها من الضعف والقوة ولما لزمها الضعف والقوة وكانت لاستجلاب الخيرات ودفع المضرات ما وضعت كان من ذلك الحكم بأنها متى ضعفت قل الخيرات ومتى قويت عم البركات ، وأن ضعفها لن يكون إلا من جهة أعدائها بضعف أوليائها ، وقوتها لن تكون إلا من جهة أوليائها بضعف أعدائها ، ولما كان ذلك كذلك وكانت الشرائع والوضائع من ذواتها لا تتقوى إلا بقوة القائمين بها من الأئمة (ع) وضعف أضدادهم ولا تضعف إلا بضعفهم واستعلاء أعدائهم وكان الأمر فى قوتها متعلقاً بهم و بحسب تمكنهم من إمضاء أمر الله وكانت مراتب الأئمة (ع) فى باب النصرة لراية الحق وإعلاء كلمة الصدق متفاوتة بحسب المساعد الزمانية وما يأتيهم من بسط القوة بموازاتهم للمبادئ الشريفة على النسبة الأفضل وكان منهم من يتعسر عليه الأمر فى أكثر أحواله لا لنقصان فى مرتبة إمامته لكن بحسب المناحس الفلكية المتعلقة بالزمان الموكل بالأكوان مثل ما تعسر على الوصى والأئمة والصدر الأول منهم

وعلى الأنبياء (ع) أمورهم ، ومنهم من تيسر له ما يريده واتسع إمكانه بحسب مساعدة الزمان إياه مثل المنصور بالله والمعز لدين الله وغيرهما فيطرد الأمر بين يديه لمصادفة الأمر زمانه الذى به يتعلق كونه فلا يستأخر ولذلك قال تعالى : «ماتسبق من أمة أجلها وما يستأخرون» وكل منهم قائم فى زمانه وقائد لأهله وحجة لله تعالى على خلقه ، وكان مقدراً أن يكون دور محمد (ص) أعظم الأدوار مدة بكون شريعته من التمامية فى نهايتها وفى غاية لايحتاج معها إلى تغيير ونسخ وتبديل إلى القيامة ومقدراً أن يكون فيه أئمة كثيرون عليهم السلام مضعفة لما ثبت من أعداد كل دور، وأن تكون لهم قوة وضعف فى الأعصار بحسب الزمان وتنقله إلى أن ينتهى إلى القيامة الموعود بها وهو اليوم الآخر ، قلنا إن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله (ع) فى كونه إماماً فى وقته وقائماً فى زمانه وقائداً لأهله وشفيعاً للمتعلقين بحبله وإن لم يكن سابعاً من (٤ب) الأسابيع فله من القوة والتأييد الممتد إليه من جهة الله بموازنته للأعداد التى من شأنها إفادة التمامية ومناسبته إياها مايخدمه بإذن الله الفلك بأجرامه والزمان بشهوره وأعوامه فينجز الله تعالى به وعده لمحمد جده (ص) بقوله تعالى : «يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» أى نطوى ذكر الإمام الضال ودولته كما طوى الغاصب الظالم ذكر أئمة الحق ونعيد الأمر فى كونه كلياً فى بيت محمد (ص) كما كان بديا فيملك المسلمين بأسرهم كما ملكهم النبى (ص) فى زمانه ويفتح الله له من الفتوح ما يتعسر به جد إبليس وأهله ويستأصل شأفة الضلال وأصله وإن الشهادة بصحة قولنا ذلك من أقاويل الأنبياء (ع) ومن رموز النبى (ص) والدلائل القائمة بما تتضمنه الفصول التالية من الشرح والنص ، وأول ما ينطق بصحة ذلك وأنه عليه السلام المبشر به المنصوص عليه بالعلامة قول إيشاعيا النبى فى التوراة مخاطباً للدعاة بالرمز بشارة لهم حيث يقول : «(كلى ما وديث[1] صبوت[2] هو ربعى بث بروشديم). افرح واشكر رعاة بنات هبوت[3] (ملكح بور بولوح)[4] صديق بيت المقدس فإن ملكك (ويسوع عولى هينى وروخيت على حمور) قد جاءك صادق مطهر من الأدناس

(١) ا : ودبث (٢) ا : صوت (٣) ف : مبوت

(٤) ف : ملكخ يربولح .

(وعلى عابر بن اثرتون) زاهداً وراكباً على حمار الوحش والأتن» فهل الرعاة إلا الدعاة وهل البنات إلا المؤمنون وهل بيت المقدس إلا الإمام وهل ماقاله من العلامة بشارة للدعاة بقوله فإن ملكك قد جاءك صادقاً مطهراً من الأدناس زاهداً راكباً على الحمار وعلى العير الأتن إلا ما عليه حال الإمام (ع) فأى دلالة أصدق وأوقع للحس من قيام ما قاله فيه من ركوب الحمار وزهده ، إن للمعتزلين عن اعتقاد إمامته قلوباً قد طبع عليها فهم لا يفقهون ، عصمنا الله بطاعته وتوفانا على اعتقاد إمامته بمنه ورحمته .

(الفصل الثالث) نقول قد يقع الظن بأن الذى قاله إيشاعيا (ع) من هذه البشارة التى ذكرناها هو بشارة بعيسى (ع) بكونه راكباً للحمار زاهداً من دون غيره والذى يبين أن الإشارة بقوله ذلك فى هذا الموضع هى بالإمام (ع) من دون عيسى (ع) ويؤيد الحكم ويقطعه قول إيشاعيا ثانياً إنه يهلك المفسدين ويفنيهم بريح شفتيه حيث يقول مخبراً عن أفعال الزاهد الراكب الحمار الذى بشربه وشوقاطه[1] بصدق — وليم وهو حيح بميسور لمعوى[2] ويقضى بالصدق والعدل للضعفاء والفقراء ويريح الخواص المتواضعين أو رص وهكتوا برص سبط[3] سود بردج شفوتو الأرض ويضرب الأرض بعصى فمه وبريح شفتيه (٥ا) يوميت روسوع يميت المفسدين ، ثم كون عيسى (ع) من هذه الأفعال خالياً من الشهادة العظمى بأن البشارة ليست به إذ لم يبق فى قومه فيقال إنه يحكم بالصدق والعدل ولم يقتل أحداً ولا أمات مفسداً ولا أمر بذلك فيقال إنه قتل وأمات وإذا كان ذلك كذلك وخلا عيسى من أحكام هذه الأفعال خلصت هذه القضايا التى حكم أشاعيا (ع) بها للحاكم (ص) بقيام إماراتها فيه إذ هو الزاهد الراكب الذى قد أفنى المفسدين ويفنيهم أبداً بحركة شفتيه بقوله خذوا رأس فلان أو اقتلوه بعصيانهم وإفسادهم ، ولم تصح إلا فيه إن ذلك لشىء عجاب ثبتنا الله على طاعته ولا حرمنا فضل شفاعته بمنه .

(الفصل الرابع) نقول إن الكون كونان : كون طبيعى وكون نفسانى ، فالكون النفسانى لن يكون إلا بالكون الطبيعى والكون الطبيعى لن يكون إلا بمطارح الأشعة

(١) ا : شوقاً. (٢) ا : المعرى . (٣) ا : بط .

الساطعة من الأجرام السماوية فى الأجسام الطبيعية النافذة فيها على حسب الأجسام المشفة على النسبة الأفضل ومحاذاة تلك الأجرام بعضها فى ممراتها بعضاً على أتم مايكون من الموافقة والمضادة ، ولما كانت لا تحدث الأكوان إلا بوقوع موافقة بين تلك الأسباب الفاعلة وبين الأشياء المنفعلة بحسب مناسبتها للأعداد[1] الشريفة التى هى المبادئ فى وجود ولا ينفك شىء منها مثل الفرد البسيط والفرد المركب والزوج البسيط والزوج المركب والحادث عن ذلك من الأعداد الشريفة مثل السته والسبعة وغير ذلك الدالة على السابقات فى الوجود والتاليات فى التركيب وكان شرف الأكوان بحسب ما يناسبه من تلك الأعداد والحادث عنها مثل العدد الشريف القوى الذى هو الزوج المركب لما ناسب موسى (ع) إياه فى كونه رابعاً من النطقاء ثم له (ما)[1] لم يتم لأحد من النطقاء ، ولما ناسبه الإمام محمد الباقر (ع) بكونه رابعاً من الأئمة فعل من بث العلم ما لم يفعل غيره ولما ناسبه المهدى بالله بكونه رابعاً من الأسبوع الثانى ظهر بالسيف وتم له ما يتم لغيره ممن تقدمه ، ومثل الستة التى هى عدد تام شريف لما ناسب محمد (ص) إياه فى كونه السادس من النطقاء كان تامًّا شريفاً وكان وضعه حاوياً لجميع الشرائع وتاماً فلن يغير ولن يبدل كما تمت الدائرة بالتقاسيم الستة التى هى ميزانها ، ومثل السبعة التى هى عدد كامل شريف[2] متناهى لما كانت فى القوة بكونها جامعة للبسيط والمركب تامة صارت قوة الأنفس وضعفها لا تظهر من العليل إلا فى مثل الأيام التى تناسب هذه العدة وهو البحران ولا تظهر القوى النفسانية إلا فيمن يكون مناسباً لهذه العدة الشريفة مثل الإمام المعز لدين الله (م) لما ناسب بكونه سابعاً من الأسابيع هذا العدد الشريف تم له من الأمر ما لم يتم (٥ ب) لمن تقدمه ومثل اليوم الآخر فى آخر الزمان وهو القيامة الكبرى وإليه الدعوة بكونه سابعاً[3] مناسباً لهذه النسبة الشريفة يصير له من القوة والشرف ما لا يدانيه أحد ممن تقدمه، قلنا إن مناسبة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله فى كونه سادس عشر الأئمة لحصول الأربعة الشريفة من ضربها فى ذاتها الذى هو ستة عشر وموازاته للثمانية بكونها ضعفها التى تلقى من جهة أربعة ومن جهة سبعة ومن جهة تسعة وكون جميع ذلك مناسبات شريفة عظيمة تدل على أنه يتم له فى الإسلام ما لم يتم لأحد

(١) سقطت فى ا . (٢) سقطت فى ا . (٣) سقطت فى ا .

ممن تقدمه وبمناسبته للاثنين بكونه ثانياً من الأسبوع الثالث يدل على هلاك أمم على يده كما هلك من أصحاب نوح (ع) الذى هو ثانى النطقاء وموافقته ذلك وشهادته بما تقدم[1] مما يكشف الشك ويقوى الأمل ، عرفنا الله تعالى بركة أيامه ولا حرمنا حسن إنعامه وحشرنا معه ومع آله المعصومين من أبنائه بمنه وطوله .

(الفصل الخامس) ومن عجيب الدلالة على صحة ما أوردناه من شهادة النبى (ص) أنه لما علم أن الأمر بعده يتداوله كل ناعق وناعر أيد عزائم ذوى الإيمان بقوله : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم فيخرج من ذريتى من يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً » دالا بذلك على أن لا بد من انتقال الأمر إلى الذرية الطيبة وإن تداولته الأمة الغاصبة ليكون بشارة لهم وفرحاً ، ودل (ص) على من يكون انتقال الأمر إليه من ذريته وطاعة الجماعة له من ولى وعدو ، وبرمز خفى فقال (ص) : « اطلبوا ليلة القدر فى العشر الثالث من الصوم فإن[2] فيها تنفتح أبواب السماء وتضىء الدنيا وتسجد الشجر والمدر والحائط والرابط » ثم أشار من العشر الثالث إلى ليلة الثالث والعشرين من رمضان فلما دل (ص) على ليلة يصير كل شىء فيها ساجداً لله تعالى وكان المعنى أنه يخرج من ذريته من الأسبوع الثالث من يطيعه أهل الإسلام ولبهم وعدوهم تأملنا بحثاً عن الوجه الذى ينطق بذلك فجعلنا أيام الشهر لما كانت بثلاثة أقسام عشر أول وعشر ثان وعشر ثالث وكل قسم بإزاء مرتبة من المراتب الثلاث التى هى النبوة والوصاية والإمامة مقسوماً على ثلاثة أسابيع من الأئمة (ع) وكانت ليلة الثالث والعشرين المخصوصة المنصوصة عليها بأن يسجد فيها كل شىء على السادس عشر من الأئمة (ص) وكان ذلك دليلا ناطقاً بانتقال أمر الإسلام والمسلمين إلى الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وانتظام الأمر فى ذرية محمد (ص) بالكلية وطاعة الأمة وليها وعدوها له بأسرها وموافقة ذلك لما تقدم شهادة صادقة بما قلنا ، ولله الحمد .

(الفصل السادس) ثم إن أول الدلائل على ما ذكرناه ظهور آثار (١٦ ا) مانص الله تعالى عليه فى كتابه بقوله : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » مخاطبة لمحمد (ص) والمعنى للتابعين له من جهة أساسه

(١) ا : تقدمه . (٢) ف ، وإن .

وأئمة دوره أن انتظروا من الأئمة التى هى أيام الله الإمام الذى يكون من أفعاله أفعال مظلمة تحير العقول وتلك الأفعال عذاب وامتحان لأهل الدعوة عظيم فى زمانه عقب الفترة ينجز الله وعده ، وتنكشف الظلمة ويعود الحق بكليته إلى بيت النبوة وذلك قوله « فارتقب» فأى إمام ظهر من أفعاله ما ظهر من الإمام (ع) من الأفعال التى قد حيرت العقول وأظلمت المقاصد فى البحث عن الغرض فيها وأى دخان أعظم مما عم المؤمنين وهل ذلك الامتحان به يهلك الفاسق ويثبت عليه الصادق ، فوجود ما قيل فيه وقيامه مقام الصدق مع سابق الشواهد وتوافقها من أمارات الحق . حرسنا الله وجماعة المؤمنين على الطاعة والتسليم إنه رءوف رحيم .

(الفصل السابع) ثم إن الله تعالى قد أشار إلى مثل ذلك فيما تقدم ذكره ؛ فقال : « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن » وقال : « يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » قالوا فى التفسير إن يوم القيامة تصير السماء كهيئة عكر الزيت وكالرصاص المذاب ، وأن الجبال تصير فى هيئة الصوف المصبوغ المندوف ، وقد قلنا فيما تقدم إن كل إمام قائم فى زمانه وإن دور محمد (ص) يجمع أئمة كثيرين ، ونقول إن كل إمام قد قدر أن يكون على يده أمر من الأمور فى قوة يظهرها عقيب فترة تقع ويهلك به قوم بتمردهم فهو من الأيام التى سماها الله فى كتابه مثل « يوم القيامة » « يوم لا ينفع الصادقين صدقهم » « يوم يأتى بعض آيات ربك » « يوم يأتى تأويله » « يوم يحمى عليها فى نار جهنم » «عذاب يوم كبير» « هذا يوم عصيب » « يوم لا بيع فيه ولا خلال » « يوم يبعثون » « يوم الوقت المعلوم » « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها » « من مشهد يوم عظيم » « يوم الزينة » « يوم ينفخ فى الصور » « يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً » « يوم الوعيد » «يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً » « يوم الجمع » « يوم التغابن » « يوم الفصل » « يوم يقوم الروح » « يوم ترجف الراجفة » « يوم الدين » « يوم التلاق » « يوم يسمعون الصيحة » « يوم التناد » « يوم الفتح » « اليوم الآخر » ؛ وغير ذلك مما هو فى القرآن ولا يجب أن يعتقد إذا ظهر فى أحد هذه الأيام قوة سماوية وموادة إلهية أنه صاحب القيامة الكبرى الذى لم يحل وقته ولم يجئ زمانه إذ ذلك لا يكون إلا بعد مضى حدود دور محمد (ص) بتمامها وكمالها فعلى رأس ذلك الحد الذى هو فى آخر الحدود

وبه تمامية حدود دور النبى محمد (ص) تكون القيامة التى حكم النبى (ص) بامتداد حسبه ونسبه إليها بقوله : « كل حسب ونسب منقطع إلا حسبى ونسبى فإنهما باقيان إلى يوم القيامة » وسيكون للسادس عشر والثامن عشر والحادى والعشرين إلى تتمة الحدود شأن من الشأن فالسماء على (٦ ب) الإمام وظاهر الشريعة وأحكامها ومصيره كعكر الزيت استحالته عن نظامه الأول بوقوع فترة(١) وضعف ، والجبال على أركان الدعوات(٢) فى الجزائر ومصيرها كالعهن انحلال نظامها حتى تتناهى فى الاضطراب إلى حد لا تبقى على رسومها الأولى(٣) فهل كان ذلك إلا زماننا الذى صار سماؤنا فيه على الحالة التى نشاهدها فى ظاهر أمرها ، وجبالنا التى هى الدعوات(٤) وأهلها فى الجزائر قد صار أمرها فى الرخاوة وانحلال النظام بكون المؤمنين(٥) عليها عوناً على تخريبها إما بقلة العلم والورع أو بفرط(٦) الشره والطمع فى النهاية التى لا بعدها نهاية(٧) فصارت الجزائر خالية من هاد الله تعالى على طريق الديانة وطلب وجه الله . فهذه كلها مواعيد قد قامت شواهدها وظهرت إماراتها . عرفنا الله خير هذه الأيام وبركتها وختمها بالسعادة وأعاننا على طاعة وليه بمنه وقدرته .

(الفصل الثامن) نقول : إن من المعلوم أن الشىء القائم عليه الدلالة بشىء ما إذا أعطى من ذاته شهادة بما قام عليه من الدليل من خارجه وتوافقت الشهادتان فهو حق لا ينكر ، ومما يعطى أمير المؤمنين (ص) من نفسه شهادة على ما قام من خارجه من الدليل عليه قوله فى آخر سجل ورد نواحى فارس على موسى بن داود جواباً عما كان اختاره من إقامة ولديه مكانه توبيخاً له وإنكاراً بقوله : « وأمافتياك وما ذكرت أنك تورثه لهما فذلك على ما يراه الإمام فى وقته وحينه ، الأيام تعد يا موسى ، والأنفاس تحصى ، والرد إلى الله تعالى وإلى وليه أحق وأحرى ، ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشداً » وحيث يقول : « وأنت إن بقيت فسوف ترى مع من يرى كيف ينزل النازلون من الباطل فجاجاً ويدخل الداخلون فى الحق أفواجاً » .

(١) ا : فطرة (٢) ا : الدعوة (٣) ف : الأولة (٤) ا : الدعاة
(٥) ا : المؤمنين (٦) ا : وبفرط (٧) سقطت فى ا .

وقوله (ع) فى سجل إلى بختيار بن الحسين الكوفى حيث يقول : « بهذا وصفك الواصفون وعرفك المعرفون وله رأى أمير المؤمنين أن يقفك مع الذين هم بأماكنهم مستوقفون على ما يخدمون به أئمتهم إلى أن يأتيهم من لفائف الله ما تثلج له الصدور وتقربه العيون ، ويعلم العالمون وتيقن الموقنون أن وعد الله لنبيه (١) فى ذريته كان حقًّا أن الله لا يخلف الميعاد » . فلو لم يعرف أن ذلك كائن لما قال وفى قوله ذلك وبته الحكم على ما أوحى إليه أكبر الدلالة على القوة الإلهية التى تظهر منه فيترك الباطل ويتبع الحق . ثم نقش خاتمه الذى هو : بنصر العظيم الولى ينتصر الإمام أبو على « فلو لم يعلم أنه ينتقم من أعداء الله لما نقش ذلك ولن يكون(٢) الانتقام إلا بالقوة التأييدية والمساعد السماوية وفى فعله ذلك (٣) الحكم (٤) على ما تقدم من الشهادات بالصحة ثم اسمه (ع) الذى هو المنصور بألف لام التعريف وحكم الله فى كتابه الكريم إشارة إليه وبشارة به وتعريفاً بقوله : « إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » أى أنه لهو الذى يغلب وينتقم ويهزم وينصر على أعداء الله تعالى وأعدائه وقوله ذلك (٧ ا) من أكبر الشهادات بما قلنا والمراد بالجمع فى قوله : المنصورون والغالبون واحد إذ من عادة العرب أن تجمع فى كلامها فتقول : (هم) والمراد واحد ونحن والمراد واحد وتقول إنا كنا فاعلين والفاعل واحد ففى موافقة هذه الشهادات وقيام هذه الدلالات ثبت الحكم بصحة ما قلنا وإن السعيد من كانت إمامته شعاره وحسن التقوى دثاره ؛ جمع الله شملنا معاشر المؤمنين بطاعته وجعلنا من أهل شفاعته إنه منانٌ متطول .

(الفصل التاسع) لما كانت الدلائل على ما بيناه أن الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين (ع) هو الذى ينجز الله وعده به لمحمد (ص) وعلى يده يعود الأمر كليًّا إلى بيت النبوة تأملنا بحثاً عن الوقت والمدة فى ذلك ليكون ما يقوم من الشهادة بذلك موكداً لما سبق من الشهادات والبشارات به فوجدنا ما يحقق قولنا (٥) قول ذى ينال النبى (ص) فى المدة التى أومأ إليها من أيامه التى هى تاريخ الإسكندر بشارة حيث يقول « اسرى هام حكى ويكيح ليفى ميم أيلو وشلوش ماوب»

(١) ف : لنبيهم. (٢) ف : يقوم. (٣) سقطت فى ا . (٤) ف : الحَم. (٥) ا : ما قلنا.

« طوبى لأولئك الموحدين لأيام ألف وثلثمائة « وشلوشيم واخمشوا » أى طوبى للموحدين فى زمن ألف وثلثمائة وخمس وثلاثين سنة من زمانى » وذلك يصدق ما ذكرناه من جهة كوننا من هذا التاريخ فى ألف وثلثمائة وسبع وعشرين سنة التى بقى إلى الوقت المبشر به تسع سنين واستحكام الأمر ببقاء الإمام (ع) إلى وقت الشيخوخة وبياض اللحية التى تستغرق (١) فيها هذه المدة فأبشروا أيها الإخوان ثم أبشروا فحقاً قال « وقوموا لله قانتين » وعلى ذلك الامتحان صابرين فوالله لينالن المؤمنون مناهم فى دينهم ودنياهم جعلنا الله معاشر الإخوان من أتباع وليه (ص) على ما ساء وسر وأعاننا على خير الأمور ثباتاً على طاعته وتسليما لأمره إنه قدير .

(الفصل العاشر) ثم إن الذى يؤكد ما أوردناه ويشيد ما أثبتناه ما جعل الله « مع فطرته عليه فجعل وقت (٢) كمال الإنسان بلوغه حد الأربعين سنة فعندها يتناهى قوى البشر فتشتد (٣) ثم إن كان له جد صاعد كان بلوغه هذا الحد الموازى للعدد الشريف الذى هو الأربعة سبباً إلى اتساق أسباب التوفيق له فى المطالب وتسهيل الأمر إليه فى المصاعب يصحح ذلك قول الله : « فلما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة آتيناه حكماً وعلماً » فتأملنا ووجدنا مولد أمير المؤمنين (ص) كان فى ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة فكان الباقى لتمام المدة التى يستعلى أمره فيها من جهة الله تعالى كليًّا مقارباً للمدة المبشر بها من كان فيها من جهة ذى نيال وتوافق ذلك من أكبر الدلالة على صحة ما قلناه والله ولى المؤمنين .

(الفصل الحادى عشر) ثم ماينطق بصحة ما أوردناه المشهور من أفعال الأجرام السماوية فى عالم الكون والفساد بحركاتها من أمر الله وتقديره وقراناتها التى يتفق لها بسيرها (٤) فى المثلثات وما توجبه من انتقال الدول بانتقال قراناتها من مثلثة إلى مثلثة وكوننا فى قران يوجب انتهاؤه انتهاء (٧ ب) دول المخالفين بانتقال القران من ركن إلى ركن واستحكام الثقة بأن الحق هو الثابت الذى لا ينتهى وأن الباطل هو الذى يبطل وينتفى وموافقة المدة فى كون القران الموجب لتغييرات الأمور وحدوث الأحداث فى العالم واستعلاء أرباب الحق للمدة المبشر بها من الأنبياء (ع) وهو تسع سنين

(١) ا : تستغرب (٢) سقطت فى ا (٣) ا : فتشد . (٤) ف : تسيير .

من الشهادة التى تشيد للقضية السابقة لنا فى ذلك والله ولى الكفاية .

(الفصل الثانى عشر) ومما يدل على ما قلناه من انتقال أمر الإسلام إلى الحاكم
بأمر الله أمير المؤمنين (ص) بإنجاز الله له وعده فيكون الأمر كله إليه كما كان
إلى النبى (ص) فى أيامه أن النبى (ص) حين علم بما اطلع عليه من غيب الله
أن الأمر فى سياسة الأمة يخرج من بيته حيث أمر الله تعالى بأن يجعلها فيه من
ذريته ويتداولها الخنازير والعفاريت[1] ضرب مثلا ليعرفه أهل الإيمان والتابعين
له فى طاعة صاحب كل زمان فقال : «إن من أشراط الساعة أن تطلع الشمس من
مغربها »وفى رواية أخرى أنه (ص) قال«تأتيكم الساعة بغتة فارتقبوا طلوع الشمس
من مغربها فعندها تكون » فكان الناس يصعدون الجبال فى الأسحار يرتقبون طلوع
الشمس من مغربها[2] فقال النبى (ص) تصحيح إيمانكم وتصديق نبيكم دالا
بقوله ذلك على أن الأمر زائل من ذريته بعده كزوال الضياء بغروب الشمس وأن
الظلم يعم كما تعم الظلمة بغيبتها وأنه لن يرجع الأمر إلى ما كان عليه فى حياة
الرسول (ص) من كون الأمر فى الإسلام واحداً من جهة الله إلا بعد مضى
أربعمائة سنة من غيبته وذلك أن الشمس بكونها فى العالم مضيئة مؤولة على أمر الله
تعالى القائم فى النبى (ص) وفى من جعله فيهم من الوصى والأئمة الطاهرين القائمين
مقامه الذين أضاءوا عالم الشرع والدين ، وغيبتها خروج أمر الله من حيث جعله
فيه من ذريته الذى بخروجه عنهم أظلم عالم الدين والشرع وطلوعها من مغربها عود
الأمر إلى ذريته[3] فيضىء عالم الدين والشرع كما تضىء الشمس للعالم بعد أربعمائة
سنة من غيبته (ع) (من العالم)[4] وهو ما دل عليه حروف شمس بحساب الجمل
وكوننا من هذه المدة فى وقت يبقى إلى انتهائها ما يقارب المدة المبشر بها أهل هذا
الزمان ويوافق قول الأنبياء والأدلة القائمة شهادة صادقة يشتد الأزر بها وترتاح النفس
معها قرب الله الفرج بمنه .

(الفصل الثالث عشر) ومما يؤيد ما ذكرناه معنى قول الله (عج) « الٓمٓ غلبت
الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل

---

(١) ا : العفاريت
(٢) ف : المغرب .
(٣) ا : الذرية
(٤) سقطت فى ف .

ومن بعد » وذلك أن هذه الآية جامعة لقضيتين وأخبار فإحدى القضيتين أن تُغلب
الروم وثانيتهما أن تَغلب الروم بعد أن غلبت فى بضع سنين ، والأخبار أن الأمر
الذى لله وبأمره ما كان قبلا وبعداً من دون ما بين قبل وبعد ، ولما كان على بن
أبى طالب (ص) هو الممثل بعيسى بن مريم بقول النبى (ص) لولا أنى أتخوف
أن تقول الأمة (١٨) فيك ما قالت النصارى فى عيسى (ع) لقلت فيك ما أخذوا
الفضل من ماء طهورك والتراب من تحت قدمك واستشفوا به ، (كان الروم)
المقيم على اتباع عيسى ومثلته مثلا على الشيعة التابعة له فى طاعة الله وطاعة رسوله
وطاعة القائم مقامه فحكم النبى (ص) عما اطلع عليه من غيب الله وأوصى إليه
بأن تغلب شيعة على (ص) بغلبة الأضداد علياً فقال غلبت الروم ثم حكم بأن ترجع
الشيعة فتغلب الأضداد بغلبة أئمة الحق من ذريته إياهم فقال : « وهم من بعد غلبهم
سيغلبون فى بضع سنين » أى مدة سبع سنين ثم قال : « لله الأمر من قبل »
أى أن الأمر الذى لله وبأمره فى دورمحمد (ص)[1] (ما كان فى أول الدور)
وهو ما كان فى أيام الرسول (ص)[2] من كون الأمر كله فى طاعة الله من
جهة الرسول من غير شركة إبليس معه ثم قال : « .. ومن بعد » أى ما يكون بعد زوال
أمر الأبالسة من الأضداد فى الدور وهو ما يكون عند انتقال الأمر بالكلية فى
الإسلام إلى ذرية الطاهرة فيكون الأمر لله من جهة وليه من غير شركة إبليس معه
دالا بذلك على ما بين القبل والبعد فالأمر لا من جهة الله ولا بأمره بل من جهة
الظالمين والغاصبين فتأملنا هذه الآية فحصاً عن المدة فى غلبة الأضداد إذ لا يجوز
أن يعدم بيانها مع قوله (تع) : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » فوجدنا « الم »
التى هى من حروف المعجم شاهدة بذلك وناطقة به وذلك أنها تدل بكونها ثلاثة
أحرف فى هذا الموضع وهو « ا ل م » أن الغالبين لعلى بن أبى طالب (ص) بالباطل
من الظالمين والغاصبين إياه على حقه ثلاثة نفر وهم :

(م ه ⊕ ه Ψ × ، ٣٦ × ، ٣٦ – ٣٣ ع)[3]

وبالانبعاث الأول الواقع من هذه الحروف وهو « ل ف ا م ى م »

---

(١) فى أول ما كان فى أول الدور
(٢) ا : من
(٣) هكذا فى نسخة بالرمز أما فى نسخة ف فهى (أبو بكر وعمر وعثمان) .

على الغالبين والظالمين بعد الثلاثة من بنى أمية وهم أكثر نفراً من الثلاثة ، وبالانبعاث الثانى الواقع من الانبعاث الأول وهو ام ال ف ى م ا ى م على الظالمين بعدهم من آل العباس وهم أكثر ممن تقدمهم وبموافقة عدد الحروف أجمع أصلا وانبعاثاً أعداد أبواب النار وهم تسعة عشر بقوله (تع) : « لواحة للبشر عليها تسعة عشر » إنهم والمستكن فى حروفهم من أهل النار وبأعداد هذه الحروف على حساب الجمل بعد إسقاط ما هو مكرر فى كل انبعاث وهى ا ل م ف ا ، م ى ا م ل ف ى على أن مدة الغضب والظلم وبقاء الأمر فى الغاصبين والخارجين ثلثمائة وثلاثة وتسعون سنة فصار موافقة الباقى وهو سبع سنين لتتمة الأربعمائة سنة التى بُشِّر المؤمنون بطلوع الشمس من مغربها على تتمتها على ما ذكر من قبل المدة التى حكم بها النبى (ص) من الله (تع) أنهم يغلبون فيها وهى سبع سنين شهادة قائمة على صحة ما ذكرناه ودلالة باهرة على أن ابتداء الفتوح لولى الله من سنة سبع وأربعمائة إلى تتمة المدة الموعود بها ؛ قرب الله فرج المؤمنين فى مشارق الأرض (٨ ب) ومغاربها بإنجاز وعده لوليه حتى لا يعبد إلا هو وحده بطاعته إنه قدير .

(الفصل الرابع عشر) ومن العجائب وباهر الدلالة أن أكبر عدو لولى الله هو المقيم ببغداد واسمه أحمد وصاحب الفيل بخراسان واسمه محمود أبادهما الله (تع) واسم الإمام (ع) إذا أخذ عدد حروفه بالحساب القديم الذى كان يعول عليه فى الأعصار الخالية فى معرفة الغالب والمغلوب وجمع أعدادها وأسقط منها تسعة تسعة على ما ذكرناه فى الرسالة المعروفة بالشعرى فى الخواص كان الباقى منها دون التسعة عدداً دالا على أنه يغلب هذين العددين أبادهما الله وذلك أن باقى اسم ولى الله (ع) بعد إسقاط الأتساع منه ثلاثة وباقى كل اسم من محمود وأحمد ثمانية والثلاثة أبداً تغلب الثمانية فقد قامت الدلالة من جهة هذا الحساب أن الله يسهل[1] له الصعاب ويذلل له الرقاب ويبسط ملكه ويمهده ويعلى رايته فى الآفاق ويؤيده قرب الله ذلك ويسره وأنسأ فى أجلنا معاشر المؤمنين حتى نعاين قدرة الله (تع) وما يفتحه لوليه (ع) من النصر والظفر إنه قدير . وبعد أن انتجزت الفصول فنقول إن الأئمة (ع) من جهة أشخاصهم بشر مثلنا من أولاد الطبيعة ومن

(١) ا : يصعب .

جهة أنفسهم مختصون بالدرجة العالية الرفيعة وإمامتهم إذا ثبتت وقامت الدلالة عليها فلا تكون أفعالهم ولا أقوالهم إذا لم يعرف وجه الحكمة فيها طعناً فى إمامتهم إذا لم يكن وقوع المعرفة بثبوتها لهم من جهة الأفعال فيقع من جهتها الإنكار وسواء عرفت الحكمة فى أفعالهم أم لم تعرف فإمامتهم ثابتة لا تنحل معاقدها ولا تنبت قلائدها كنبوة النبى (ص) التى لما كانت ثابتة لم تكن مخالفته فى حكمه بمؤاخذة العم البرىء الساحة بالقاتل خطأ لأحكام كتاب الله (تع) بقوله : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » عرف الحكمة أم لم تعرف طعناً فى نبوته إذ نبوته ثبتت من جهة أخرى لا من جهة الأفعال والأحكام وبالاعتبار بالأفعال يهلك الناس فى الأئمة فيرونهم بأشخاصهم ولا يبصرون مراتبهم فيختلف عليهم الاعتقاد بأدنى شبهة تعرض فيقعون فى الشك والارتداد نعوذ بالله فيؤديهم ذلك إلى النار والبوار وسوء الدار ولذلك قال (تع) : « وتراهم ينظرون إليك (يا محمد) وهم لا يبصرون (عظيم مرتبتك) » وإذا كان ذلك كذلك فبالحرى أن يتأمل العاقل لنفسه ولا يعتبر بما ينطوى عليه من أفعال الإمام (ع) وإن كانت فى ظاهرها لا تتعلق بحكمة إذ ذلك لا ينقض إمامته وفعله لا يخلو من حكمة يقصدها به وإن كنا لا نعرفها فى الوقت ولا يدهشه ما يظهر له من اضطراب الأمور ظاهراً وباطناً فالأنبياء والأوصياء والأئمة (ص) قد تضطرب عليهم أمورهم ولن يكون ذلك طعناً فى مراتبهم ولولا أن أسرار الأئمة (ع) منهى عن إنشائها لأتيت بالعلة فى العارض فى زماننا وفى الجملة فلنا اعتبار بالوصى (ع) كيف جعل وراء الباب (١٩) ستراً على مرتبته بالأئمة (ع) أيضاً كيف كانت أحوالهم فى الفترات وهذا أعنى العارض فى زماننا من الفترة[1] فى جنب ما جرى على الأئمة (ع) هين بحمد الله ومنه وقد تحصل المناحس فى بعض أمكنتها مسامتة للمواضع الشريفة من الولادة والعقود فى الولاية فيحدث مثل ذلك فتزول بانتقالها وتعود الحال إلى أفضلها وأنا أبث الحكم جملة أنه لن ينال خيراً ولا يرتفع فى مثل هذه الفترات إلا من لا يستحق من الأذناب ومن إذا تفحص فى أمره كان خسيساً فى أصله ودينه أو معاً فلا يصعبن عليكم أيها المؤمنون ما يجرى فإن الرب كريم والمولى رءوف رحيم والزمان يأتى بتيسير كما أتى بتعسير ؛ ثم أقول إن الإمامة رياسة نفسانية ودرجة قدسانية

(١) ف : الفترات .

ينالها الأئمة (ع) بتأييد الله (تع) وواسطة مثالهم يسطع نورها فى الأنفس المتعلقة بها ديانة سطوع شعاع الشمس فى الأجسام الشفافة فتضيئها بكونها مضيئة بالمواد التى تنصب إليها من لطائف الخطرات البعيدة من الزلات وبكونها من اليقين بالله (عج) بحيث لا تغلبها عوارض الطبيعيات وإن اعترتها بكونها فى عالمها تستدرك الزلة ومن ذلك تثبت لها العصمة ولذلك قال تعالى: « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان» به يحكم الله آياته وهى إذا تأملنا[(١)] من طرف كانت للأنفس[(٢)] كالجنس من النوع بكونها مقومة لذات الأنفس ومثبتة لها وحافظة لها بما ينصب إليها من جهتها من العلوم والمعارف الدينية التى بها تتجوهر[(٣)] الأنفس وتؤديها إلى دار الثواب والقرار ومن طرف كانت لها كالنوع يكون صورتها فى وجوب طاعتها من جهة الله تعالى محمولة فى ذواتها وبها شرفها وقد ذكرنا فى رسالتنا الوصية فى المعاد كيفية الأمر فى ذلك على شرح فطوبى لذات كانت صورتها[(٤)] اليقين بوحدانية الله وصدق مقامات أولياء الله فهى الناجية ولتكون فى حظيرة القدس بمشابهتها إياها هى الراجية إذا كان ذلك مؤديها إياها إلى مجاورة رب العالمين ومساكنة الجنان والحور العين، ومثلها من الأشياء الجسمانية كالدراهم الجيدة العيار[(٥)] المضروبة بالسكة المنقوشة باسم الله وباسم رسول الله واسم أوليائه فكان موضوعها ذات النفس ونقشه صورة التوحيد وطاعة أرباب التأييد فلا يشك فى كونه مقبولا عند أصحابه مقرباً من أسبابه عزيزاً على أربابه وتعساً لنفس تعتقد غير توحيد الله والإيمان برسوله والأئمة من إله واحداً بعد واحد وتقصر فى الأعمال المفروضة التى هى وسم الطاعة فى النفس[(٦)] فهى الهاوية فى نار جهنم والغاوية على نفسها بالويل والندم ومثلها من الأشياء الجسمانية كالدراهم الزيف التى ترد أو كالبهرج الذى فى جملة الجيد لا يعد بكونها مغشوشة (٩ ب) بغير ما أمر الله به فلا تلائم الجواهر الشريفة ولا تجاور العناصر النفيسة فأى حسرة[(٧)] أعظم وأى ندامة أكبر من أنفس يجيئها الموت وهى خالية من الخيرات التى تقرب درجتها فتحصل فى دار مالكها رب العالمين وسكانها أصحاب اليمين ورؤساؤها أنبياء الله (تع) وقوادها أولياء

---

(١) ا : وإذا تأملنا. (٢) ا : الأنفس. (٣) ا : التى تجوهر.

(٤) ا : صورته. (٥) ا : المعيار. (٦) سقطت فى ا (٧) ا : خسر.

الله (ع) وخيراتها تفيض وماء بركاتها لا يغيض فلا يكون لها إله تقبل بها الخيرات ولا ترد فتستأنف العمل من الصالحات هيهات هيهات كلا لا سبيل إلى اقتناء الفضائل القدسانية ولا إلى نيل هاتيك الدرجات النفسانية إلا بآلات تتهيأ لها مما يليق بها بالتزود من دار الدنيا ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتمسك بما أمر الله به من الطاعة وتهذيب النفس بالأخلاق الرضية وتحسينها بالأعمال المرضية وتحليتها كما تحلى العروس بأصناف الحلى وتزيينها كما يزين الميت عند التجهيز فيوشك حينئذ أن يكون له مآب كريم ويتعرف به بركة ونعيم حشرنا الله مع موالينا الطاهرين أهل الخيرات الإلهية وجمع بيننا وبينهم فى دار القرار ونور عقولنا بطاعتهم ورزقنا خير هذه الأيام إنه قدير، وبعد؛ فإنا فى إنجاز الوعد فى أول الرسالة نختمها بالحمد لله مالك الأرواح ومتوفيها وبالصلاة على معدن السلامة ومحل النور والكرامة محمد وآله الأبرار الطاهرين وبالسلام على هادينا وإمامنا[(١)] المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وعلى أبنائه[(٢)] الطاهرين والأئمة من عقبه المنتظرين.

تحت رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين (ع) وصلواته وبركاته وتحياته على رسوله وخيرة من خلقه محمد وآله الأئمة الطاهرين وهى الرسالة التى كتبها على بن حسين بن أحمد الأصبهانى المؤذن بالجامع الأزهر قبس من الداعى أحمد بن عبد الله بن محمد الكرمانى مؤلفها وكتبت من نسخته وقرئت عليه سبحان الله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم حسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) سقطت فى ا. (٢) ا : أبنائه.

الفصل الثانى

ظهور الدعوة الجديدة

فى رسالة مباسم البشارات رأينا الكرمانى يشير إلى اضطراب الأحوال فى مصر مقر الإمام الحاكم حينما وفد إليها سنة ٤٠٨ هـ ، وكان يشير بصفة خاصة إلى حالة الدعوة الفاطمية ، فقد صرح الكرمانى بأن عهود الدعوة التى كانت قبل ذلك قد درست ، وأن مجالس الحكمة التأويلية أبطلت ، وتقلبت الأحوال بالناس فالعالى قد اتضع والسافل قد ارتفع ، والذين آمنوا بالدعوة الفاطمية اضطربت أحوالهم وكل واحد يرمى صاحبه بالإلحاد ، وبعضهم غالى فى رأيه والبعض الآخر خرج عن عقيدته إلى آخر ما جاء فى رسالته التى نشرناها فى هذا الكتاب ، فالصورة التى صورها الكرمانى لهذا الاضطراب الذى ظهر فى المجتمع كان بسبب ظهور دعوة جديدة تقول بأن الحاكم بأمر الله ما هو إلا ناسوت للإله ، ولا شك أن الدعاة الذين نادوا بهذه الدعوة الجديدة ظلوا يعملون لها مدة طويلة فى الخفاء ، ويعدون عدتهم للظهور بها فى الوقت الملائم ، ومن حسن الحظ أننا عثرنا على نص طريف فى الكتب المقدسة للدروز يفهم منه أن الحاكم بأمر الله أظهر لاهوته لأول مرة سنة ٤٠٠ هـ . وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن سلوك الحاكم إنما كان بتأثير فكرة الألوهية ، وأن دعاة هذا المذهب كانوا بجانبه قبل هذا التاريخ ، والمؤرخون يذكرون ثلاثة من الدعاة الكبار الذين أسسوا هذا المذهب وهم الحسن الفرغانى المعروف بالأخرم وحمزة بن على بن أحمد ومحمد بن إسماعيل الدرزى ، وهؤلاء جميعاً ، لا يذكر التاريخ عنهم شيئاً قبل ظهور الدعوة إلى المذهب الجديد ، فأصبحنا لا نعرف شيئاً عن حركاتهم ووسائلهم التى اتخذوها قبل إعلان هذه الدعوة سنة ٤٠٨ هـ ، ولكننا نرجح أنهم كانوا من حاشية الحاكم الذين لم يفارقوه مدة الوصاية عليه ، وخاصة حمزة بن على الذى استأثر بكل شىء وبالتمجيد كله ، ويظهر أن الحاكم كان متأثراً به تأثراً تامًّا ، وربما كان حمزة هو الذى

أوحى إلى الحاكم بكل ما قام به من أعمال ومن ادعاء الألوهية ، ولا أستطيع أن أفهم قول القائلين إن حمزة كان داعياً من دعاة الفاطميين فقط ، فالأرجح عندى أنه كان يؤدى عملا فى القصر وكان على اتصال دائم بالحاكم ، ومما لا شك فيه أنه لم يكن من الكتاب لأن أسلوبه فى رسائله وكتبه ليس به هذا الإشراق وتلك الديباجة وهذه الرصانة التى عرفت عن كتاب الفاطميين ودعاتهم ، فهو فى كتاباته أقل جودة وفصاحة من الكتاب بل أخشى أن أقول إنه لم يكن عربى البيان بالرغم من كثرة رسائله التى بين أيدينا ، ويغلب على ظنى أن حمزة كان أحد الخدم الخصوصيين للحاكم وكان خادماً ذكيًّا لبقاً ذا حيلة ودهاء وخيال خصب ، وكان بحكم عمله فى القصر يستمع إلى مجالس الحكمة التأويلية فوعاها وحفظ منها كثيراً ، وربما قرأ كتب الدعوة التى كانت بالقصر فأفادته فى تلوين عقليته وتوجيه فكره إلى ما يرضى طموحه ويحقق آماله ، وظل هذه السنوات يهيئ نفسه لذلك وفى سنة ٤٠٨ هـ ، لقبه الحاكم بالإمام وأطلقه يذيع المذهب الجديد ولذلك جعلت هذه السنة مبدأ تقويم حمزة ، وبالتالى مبدأ تقويم الدروز .

والمؤرخون يذكرون خطأً أن محمد بن إسماعيل الدرزى المعروف بنوشتكين وفد على مصر سنة ٤٠٨ هـ وخدم الحاكم فأحسن إليه وأنعم عليه وقربه حتى صار القواد والدعاة وكبار رجال الدولة يتقربون إليه ويلجأون إليه لقضاء حوائجهم ، وأنه فى هذه السنة أظهر دعوة التأليه ، ولكنى أرى غير ذلك كله ، فالدرزى كان بمصر قبل هذا التاريخ الذى حدده المؤرخون ، واتصل بحمزة بن على مدة طويلة قبل إظهار الدعوة وعملا معاً فى رسم خططها ، ويصرح حمزة فى رسالة الغاية والنصيحة بأن الدرزى كان أحد الذين استجابوا له ولكنه تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين ، ويقول حمزة ، فى رسالة الرضى والتسليم : « واعلموا بأن الدرزى والبرذعى نطقا بغير معرفة ولا علم وأعليا البناء بغير أساس ، وقد رفعت اسمه إلى الحضرة اللاهوتية فى جملة أسماء كثيرة وقد سألنى مراراً كثيرة أن أدفع إليه شيئاً من كتب التوحيد مما ألفته فلم أفعل ذلك » وكلام حمزة فى رسالة البلاغ وفى رسالة الصبحة الكائنة تدل كلها على أن الخلاف بين حمزة والدرزى بسبب تسرع الدرزى فى الكشف عن المذهب الجديد ، والاتفاق واضح بين المؤرخين

وكتابات حمزة فى سنة ظهور مذهب حمزة أى سنة ٤٠٨ هـ ، فالخلاف بين الداعيين بدأ قبل هذه السنة ، ويذكر حمزة أسماء الذين كانوا مع الدرزى أمثال أبى منصور البرذعى وأبى جعفر الحبال والعجمى والأحول وخطلخ ماجان ومعاند وغيرهم من العكاويين ، فنفهم من هذا كله أن الدرزى وأصحابه كانوا يتبعون حمزة، ولكن الدرزى أراد أن يستأثر بالألقاب وبالرياسة أو الإمامة فأسرع بالكشف عن المذهب ولم يستمع إلى نصائح حمزة بالتريث وعدم الخروج على طاعته فقد جاء فى رسالة الصبحة الكائنة « وما منكم أحد إلا وقد نصحته بحسب الهداية إلى دعوته فمنكم من استجاب ونكث مثل على بن أحمد الحبال الذى كان مأذوناً لى وعلى يده استجاب نشتكين الدرزى » ويقول مرة أخرى فى نفس الرسالة عن مطامع الدرزى فى الإمامة « فكتبت إليكم هذه الأحرف لتقفوا عليها وتسكنوا إلى دقائق معانيها وتتحققوا من نور الإمامة وهدايتها أنها لا تنقسم فى شخصين فى وقت واحد » ، وفى رسالة الرضا والتسليم يقول حمزة : « وأما البرذعى فأنا أرسلت إليه ودعوته إلى توحيد مولانا جل ذكره وعبادته فأقسم بمولانا جل ذكره أنه لا يدخل فى هذا المذهب إلا بتوقيع من مولانا جل ذكره فلما أرسل إليه الدرزى رسوله ومعه ثلاثة دنانير وأوعده بالمركوب والخلع فمضى إلى عنده وفتح له أبواب البلايا والكفر ، وأما أصحابه كلهم فمكتوبون عندى عليهم وثائق بالشهود العادلة لا يرجعوا (هكذا فى الأصل) عما سمعوه منى أبداً » .

فمن هذه الأقوال يتضح أن الدرزى طلب الإمامة ، وأنه أغرى من اتبعه بالأموال والخلع والمركوب ، ومن الطريف أن حمزة يتهم الدرزى فى رسالة الغاية والنصيحة بأن الدرزى كان يضرب الدنانير والدراهم ويزغلها ، فربما كان الدرزى يتولى دار الضرب للحاكم ومن ثم كانت له هذه المكانة فى المجتمع مما جعل المؤرخين يذكرون أنه كان مقصد القواد والدعاة وكبار رجال الدولة ، فحمزة يتهم الدرزى بأنه كان يزغل الدنانير والدراهم فظن أنه يستطيع أن يدلس فى أمر الدين بما جبل عليه واعتاده فى أمر النقود ، فأتى الدرزى بآراء دينية خالفه فيها حمزة من ذلك أنه سمى نفسه « سيف الإيمان » و « سيد الهادين » وقال إنه خير من حمزة وأعلى منه ، وأن الدرزى كان يلعن مخالفى المذهب بينما يقول حمزة : « اللعنة لا تزيد فى الدين

ولا تنقص منه » ولذلك منع أتباعه من سب مخالفيه جرياً على السجل الذى أصدره الحاكم بمنع سب السلف الصالح ، كما أن حمزة رأى أن يخاطب الناس جميعاً بالتى هى أحسن « فإذا فعلت هذا مالت قلوب العالم إلينا ، وارتفعت ألسنتهم عنا » وهذه كلها ليست خلافات جوهرية فى صميم العقيدة ، ولكن الخلاف الجوهرى كما فهمته من كتابات حمزة إنما كان بسبب رياسة الدعوة الجديدة ، وتسرع الدرزى فى الكشف عن الدعوة الجديدة ولذلك أذهب إلى أن ظهور دعوة الدرزى كانت سنة ٤٠٧ هـ .

أما الداعى الثالث وهو الحسن بن حميدة الفرغانى المعروف بالأخرم أو الأجدع فلا نعرف عنه شيئاً إذ لم يذكر المؤرخون سوى اسمه وأنه قتل بعد أيام قليلة من ظهور الدعوة الجديدة إذ كان يسير مع أصحابه بالقاهرة سنة ٤٠٨ هـ . فوثب عليه رجل من أهل السنة وقتله وقتل معه ثلاثة رجال من أتباعه فغضب الحاكم وأمر بإعدام قاتله ودفن الأخرم على نفقة القصر فى حفل رسمى ، كما أن جمهور أهل السنة احتفلوا بمأتم القاتل ودفنوه مكرماً ، وكان الناس يزورون قبره للتبرك به ، مما ضاعف فى غضب أصحاب الأخرم ، فنبشوا قبره وأخفوا جثته ، هذا كل ما ذكره المؤرخون عن ثالث ثلاثة دعاة أسسوا الدعوة الجديدة ، وقد نشرنا من قبل « الرسالة الواعظة » لأحمد حميد الدين الكرمانى ، وهى رسالة موجهة إلى الأخرم رداً على رقعة بعث بها الأخرم إليه ، ومن هذه الرسالة يتضح لنا أن الأخرم هو الذى كان يقود حركة الدعاية للمذهب الجديد وأنه هو الذى كان يبعث بالرقاع إلى الناس يدعوهم فيها إلى العقيدة الجديدة دون أن يشير إلى حمزة وكان يطلب من العلماء وكبار الدعاة أجوبة على رقاعه فاضطر الكرمانى إلى أن يجيبه فكتب « الرسالة الواعظة » فى الرد عليه ويشير فيها إلى أن الأخرم هو رئيس هذه الدعوة وفى هذه الرسالة يثبت الكرمانى فى المقدمة بأن الحاكم إمام من أئمة المسلمين الذين يعملون على نشر الإسلام وحمايته ويعملون بفرائضه وأحكامه ثم يأخذ الكرمانى فى الرد على أسئلة الأخرم ، فأول ما نراه من ذلك أن الكرمانى وجد رقعة الأخرم خالية من البسملة ومن الصلاة على النبى وعلى الأئمة من ذريته فيقول الكرمانى : « ولا تخلو أن تكون فى تظاهرك بولاء أمير المؤمنين عليه السلام إما متبعاً له أو غير متبع ،

فإن كنت متبعاً فبمخالفتك إياه فيما أمرك به فى السجلات المكرمة من السلام عليه وعلى آبائه الطاهرين فى جميع المكاتبات وقعودك عن الاقتداء فيما يفعله من تصادير سجلاته وجمع مكاتباته وخطبه ببسم الله الرحمن الرحيم والاستفتاح به والصلاة على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد والتبرك بها قد كفرت » .

ثم يقول الأخرم فى رقعته : « من عرف منكم إمام زمانه حياً فهو أفضل ممن مضى من الأمم من نبى أو وصى أو إمام » ، «وأن من عبد الله من جميع المخلوقين فعبادته لشخص لا روح فيه » مستدلا بقوله : « إن الله اسم والألف منه شبيه بالطول واللام منه شبيه بالعرض والهاء منه شبيه بالعمق فيكون طويلا عريضاً عميقاً وأن الله اسم وهذه صفته والمعنى هو الشخص » ويسأل الأخرم عن معنى الآية القرآنية « عيناً فيها تسمى سلسبيلا » (سورة الإنسان ٦٧–١٨) ثم يقول لأهل الدعوة الفاطمية : « قد قامت قيامتكم وانقضى دور ستركم » ثم يعود إلى سؤال الكرمانى عن الإسلام وشرائطه ؟ وعن الذى يتقرب به إلى المعبود ؟ وما الذى استعبد الله به الخلق ؟ وهل الشريعة محدثة أم قديمة مع الدهر ؟ وهل الشريعة هى الدين ولا دين غيرها أم هى طريق الدين ؟ وما النفس ؟ وما العقل ؟ وما غاية الإبداع الذى فوق الروحانيين والجسمانيين ؟ ثم ينتهى به القول إلى أن الشريعة والتنزيل والتأويل خرافات وقشور وحشو ولا تتعلق بها نجاة وأن الناس لا يوجهون وجوههم إلى القبلة لأنها حائط ، وأن المعبود هو الحاكم .

هذه هى الآراء التى بعث بها الأخرم فى رقعته إلى الكرمانى ، وأجاب عنها الكرمانى فى رسالته « الواعظة » ، ويتضح لنا أن آراء الأخرم هى نفس الآراء التى دعا إليها حمزة والتى نجدها فى الكتب المقدسة للدروز ، وأن الخلاف كان شديداً بين أصحاب دعوة الفاطميين وبين أصحاب الدعوة الجديدة ، فالكرمانى قال بتكفير كل من دعا إلى المذهب الجديد وكذلك قال أصحاب هذا المذهب فى مخالفيهم وقد سجل المؤرخ سعيد بن البطريق ذلك بقوله : « وصار أصحاب الهادى إذا لقوا أصحاب ختكين داعى الدعاة لعن بعضهم بعضاً ويكفر كل فريق منهما بالآخر » .

فالأخرم إذن كان من مؤسسى هذه الدعوة ولا ندرى تماماً مرتبته بين الحدود

لأنه قتل قبل أن يتبلور مركز الحدود ومراتبهم ، ولا ندرى ماذا يكون مصيره مع حمزة إذا قدر له أن يعيش ، لأن طموح حمزة كان لا حد له كما هو واضح فى كتاباته عن نفسه وعن الأدوار التى عاش فيها . ومهما يكن من شىء فإن الدعاة إلى المذهب الجديد ظلوا فى سترهم مدة طويلة يعملون فى الخفاء ويدعون الناس سراً لمبادئهم وتعاليمهم واستجاب لهم عدد كبير حتى قام الدرزى وأعلن الدعوة سنة ٤٠٧ ﻫ وانقسم الدعاة والمؤمنون بالمذهب الجديد إلى فريقين فريق الدرزى وفريق حمزة ، وقام الدرزى سنة ٤٠٨ ﻫ . ومعه نحو خمسمائة من أتباعه بالحج إلى قصر الحاكم فهاجمهم جموع الناس والجند فقتل من أتباع الدرزى نحو أربعين رجلا وهرب الباقون ، وفى اليوم التالى هاجم الناس مقر حمزة ومخبأه وكان معه اثنا عشر رجلا وكادوا يقتلون لولم يصدر أمر الحاكم بوقف القتال وبذلك فقط أنقذ حمزة ومن كان معه فاختبأ حمزة بعد ذلك فى خندق حتى خرج منه بعد أن اطمأن على نفسه ، واختلفت الأقوال وتضاربت عن الدرزى فالأنطاكى وابن العميد يذهبان إلى أنه قتل فى الثورة سنة ٤٠٨ ﻫ . أما ابن البطريق فقال إن بعض غلمان الأتراك عمل على قتل الدرزى فوثب إليه وهو فى مواكب الحاكم فقتله ونهب داره وافتتنت القاهرة وأغلقت أبوابها ولبثت الفتنة ثلاثة أيام وقتل فيها جماعة من الدرزية ، ولكن يظهر من رسائل حمزة أن أصحاب الدرزى قد اعتقلوا وأودعوا السجون ، وقيل إن الدرزى هرب إلى وادى التيم وظل يدعو أهل الجبال بمذهبه ولذلك عرف أهالى هذه المنطقة الذين اعتنقوا دعوته « بالدروز » ، ويقال إن الحاكم هو الذى نصح الدرزى بالرحيل إلى هذه المنطقة فى الشام وأعانه بالمال ، وقيل إنه قتل سنة ٤١٠ ﻫ كل هذه الأقوال لا نستطيع أن نعرف منها الحقيقة لاضطرابها فيما بينها ثم لأن حركة التأليه أصبحت إلى حمزة بعد أن خرج من ميدانها الأخرم والدرزى وصار أمر الدعوة كله إلى حمزة ، فلقب نفسه « هادى المستجيبين » و « إمام الزمان » و « قائم الزمان » و « المنتقم من المشركين بسيف مولانا » إلى غير ذلك من الألقاب ، وأخذ يكتب الرسائل التى أودعها دعوته ، ويبعث بالرقاع إلى المخالفين ويولى أعوانه وظائف الدعوة وفى شهر ربيع الأول من سنة ٤٠٩ ﻫ . بعث إلى القاضى أحمد بن محمد بن العوام رقعة هذا نصها :

«توكلت على أمير المؤمنين جل ذكره ، وبه أستعين فى جميع الأمور ، معل علة العلل ، صفات العلة بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد أمير المؤمنين ومملوكه حمزة بن على بن أحمد هادى المستجيبين ، المنتقم من المشركين بسيف أمير المؤمنين وشدة سلطانه ولا معبود سواه إلى أحمد بن محمد بن العوام الملقب بقاضى القضاة ، أما بعد فقد تقدمت لنا إليك رسالة نسألك عن معرفتك بنفسك فقصرت عن الإجابة قلة علم منك بالحق وإهجاناً به ، وكيف يجوز لك أن تدعى هذا الاسم الجليل وهو قاضى القضاة وليس لك علم بحقائق القضايا والأحكام ، فقد صح بأنك مدع لما أنت فيه فيجب عليك أن تعلم نفسك وتدربها ، فإن كنت قد جهلتها فأنت فرعون الزمان ، وفعلك لاحق بعثمان بن عفان ، فيجب عليك أن تقلع عما أنت عليه وتتبع سير أصحابك المتقدمين أبى بكر وعمر ، وتزيل تلثيمة البياض عن رأسك والعمامة والطيلسان ، وتلبس دنية طويلة سوداء بشقائق صفر طوال مدلاة على صدرك وتلبس دراعة بلا جيب بل تكون مشقوقة الصدر وتكون مرقعة بالأحمر والأصفر والأديم الأسود الطائفى ، وتكون قصيرة عليك لتلحق فى الشكل بعمر بن الخطاب ، ويكون لك درة على فخذك لتقيم بها الحدود على من تجب عليه وأنت جالس فى الجامع ، ويكون لك فى كل سوق صاحب يتزيى بزيك وبيده درة يقيم بها فى سوقه الحدود على من وجبت عليه مثل الزانى والسارق والقاذف وشارب الخمر ممن هو من أهل ملتك ، وتكون تتولى الخطبة بنفسك وتطلع على المنبر بلا سيف تتقلد به ، ويكون ممرك ومجيئك من دارك إلى الجامع وأنت ماش حافياً لتكون فى ذلك لاحقاً بأصحابك المتقدمين أبى بكر وعمر وإياك ثم إياك أن تنظر لموحد فى حكم لا أنت ولا عادلتك فى شهادة نكاح ولا طلاق ولا وثيقة ولا عتق ولا وصية ومن جلس بين يديك على حكم فتسأل عنه أن يكون موحداً فترسله إلى مع رجالتك لأحكم أنا عليه بحكم الشريعة الروحانية التى أطلقها أمير المؤمنين سلامه علينا ، فانظر لنفسك فقد أعذرتك مرة بعد أخرى وأنذرتك» .

فهذه الرسالة تثبت أن حمزة أصبح فى مكانة استطاع منها أن يخاطب قاضى القضاة بمثل هذا الخطاب ، ولو لم يكن وراء حمزة من يحميه ويدفع عنه الأذى ما كان يجرؤ على كتابة مثل هذا الخطاب ، ويصرح حمزة بذلك فى رسالته

البلاغ فهو يقول : «وقد أرسلت إلى القاضى عشرين رجلا ومعهم رسالة رفعت نسختها إلى الحضرة اللاهوتية فأبى القاضى واستكبر وكان من الكافرين واجتمعت على غلمانى ورسلى الموحدين لمولانا جل ذكره زهاء مائتين من العسكرية والرعية وما منهم رجل إلا ومعه شىء من السلاح فلم يقتل من أصحابى إلا ثلاثة نفر وسبعة عشر رجلا من الموحدين فى وسط مائتين من الكافرين فلم يكن لهم إليهم سبيل حتى رجعوا إلى عندى سالمين» .

وقد اتفق كلام المؤرخين وقول حمزة فى ذلك ، ويضيف المؤرخون أن قاضى القضاة أبى أن يجيبهم إلا بعد أن يطالع الحاكم نفسه فى ذلك ، فكان موقفه موقف بعض أصحاب الدرزى الذين اعتقلهم حمزة إذ صرح حمزة فى رسائله أن معانداً (أحد المعتقلين) أبى أن يستجيب إلا بعد أن يخرج سجل الحاكم بذلك . ويتضح من رسائل حمزة أن الناقمين على آرائه هاجموا مقر حمزة فى مسجد تبر خارج القاهرة بالقرب من المطرية الحالية ، وكان حمزة قد اتخذ ملجأ فى داخل المسجد وحصنه بحيث لا يفطن أحد إلى مقره ، فلما جاء خصومه أحرقوا باب المسجد ثم وجدوا داخل المسجد باباً من الحجر لا تعمل فيه النار ويصعب نقب جداره ، ويقول حمزة : «إن الباب الحجر القوى هو خوخة ضيقة لا يستطيع أحد أن يدخلها إلا إن كان من أصحابها أو أربابها» فلم يستطع أحد أن يصل إليه أو إلى أتباعه المتحصنين داخل المسجد ، ويظهر أن الحاكم خاف على حمزة فكثيراً ما كان يسكنه معه فى قصر الخلافة الفاطمية كلما اشتد طلب الناس لحمزة حتى إذا هدأت الفتنة بعض الشىء عاد حمزة إلى حصنه فى مسجد تبر وقابل مؤيديه وأتباعه الذين كثروا حتى بلغ عددهم مائة ألف ، ونفهم من الكتب المقدسة أن حمزة بدأ فى تعيين الدعاة فى الأقاليم والجزر مقتدياً فى ذلك بنظام الدعوة الفاطمية ، وأخذ يلقب نفسه والدعاة الذين قبلوا معاونته ويخلع عليهم وعلى نفسه النعوت والصفات وألقاب التكريم — وسنتحدث عن هؤلاء الحدود فى باب العقائد — كما رسم للحدود كيف يقابلون الحاكم بأمر الله وكيف يخاطبونه مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الحاكم كان يشجع هؤلاء الدعاة وأنه كان يطمح إلى أن يعترف الناس بألوهيته ، وذهب حمزة فى إرسال كتب إلى الملوك والأمراء وكبار رجال العالم يدعوهم إلى الدخول فى هذا

المذهب الجديد فنراه يرسل إلى ولى العهد عبد الرحيم بن إلياس ونرى بهاء الدين الملقب بالمقتنى يرسل إلى راجا بهر بال بالهند و إلى إمبراطور بيزنطة وغيرهم ، وهنا يجب أن نذكر أن بهاء الدين كان له أثر قوى فى تاريخ الدعوة الدرزية بل فى العقيدة نفسها ، وسنذكر ذلك فيما بعد ، أما حمزة فقد رأيناه يتخذ مسجد تبر مركزاً له وكان يتصل بالحاكم عن طريق الرسل والمكاتبات فأكثر رسائله يقول إنه رفعها إلى الحضرة اللاهوتية وظل مختفياً حتى سنة ٤١٠ هـ ، فنى رسالة النساء الكبرى يشير إلى أن الحاكم أظهر مرتبة حمزة ، ومن يدرى لعل حمزة ظهر فى هذه السنة عقب قتل الدرزى وأتباعه ، ولا نعلم شيئاً عن حمزة بعد اختفاء الحاكم فى شوال سنة ٤١١ هـ إلا هذه الرسالة التى بعثها إلى أتباعه بالشام على يد الداعى أبى يعلى يحدثهم فيها عن غيبة الحاكم وتاريخ الرسالة سنة ٤١٧ هـ ، ولكننا نشك فى نسبة هذه الرسالة إلى حمزة لأن أسلوبها مختلف جداً عن أسلوب حمزة .

وفى رسالة الإعذار والإنذار التى بدون تاريخ يفهم منها أنها كتبت بعد اختفاء الحاكم بقليل وفيها يصرح حمزة بأنه الإمام وأنه سيغيب أيضاً على أن يرجع مرة آخرى بعد قليل ، ويصرح بهاء الدين المقتنى أنه عند ما غاب المعبود (أى الحاكم) امتنع قائم الزمان (أى حمزة) عن الوجود ، فمن ذلك كله نقول إن حمزة خاف على نفسه بعد اختفاء الحاكم ، واختفى هو الآخر ، أما كيف اختفى وأين اختفى ؟ فلا سبيل إلى الإجابة عن ذلك لعدم وجود النصوص التاريخية التى توضح ذلك ، غير أننا نفهم من الكتب المقدسة أن بهاء الدين الملقب بالمقتنى كان يعرف مكانه وكان متصلا به ، وهناك نص آخر فى هذه الكتب يشير إلى أن الإمام الظاهر بن الحاكم اضطهد أصحاب حمزة وتتبعهم فى كل مكان حتى إن الناس نسوا ذكر حمزة بعد أربعين يوماً فقط من ولايته الحكم .

وقام بأمر الدعوة فى غيبة حمزة الداعى بهاء الدين أبو الحسن على بن أحمد السموقى المعروف بالضيف لأن مرتبته فى الدعوة هى مرتبة الجناح الأيسر أو التالى وسنرى فى حديثنا عن الحدود فى العقيدة الدرزية أن من يشغل هذه المرتبة يكون لسان الدعوة وله من الحدود الجد والفتح والخيال ، ومع ذلك فنحن نعجب لسكوت كتب القائد عن صهر حمزة والذى كان يليه فى ترتيب الحدود والذى كانت له

مرتبة ذى مصة الذى امتص العلم من حمزة ، وهو أبو إبراهيم إسماعيل بن حامد التميمى ، فلم تذكره كتب العقائد الدرزية بعد غيبة حمزة كذلك لا تذكره كتب التاريخ ، وكذلك لم تذكر هذه الكتب شيئاً عن أبى عبد الله محمد بن وهب القرشى الذى كان يلى التميمى فى مرتبة الحدود وليس عندنا ما نعلل به سكوت هذه الكتب عن هؤلاء الحدود العظام الذين قام المذهب على أكتافهم إلا أن نقول إنهم غابوا كما غاب حمزة والحاكم بأمر الله ، واستمر بهاء الدين الضيف يحمل عبء الدعوة ويكتب رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الدخول فى مذهبه ، كما كتب إلى الذين خرجوا عن المذهب بعد أن كانوا من دعاته مثل معاد بن محمد وطاهر بن تميم اللذين كانا داعيين ثم تحولا عن عقيدة التوحيد فاضطر بهاء الدين إلى أن يكتب لهما رسالة التنبيه والتأنيب وتاريخها سنة ٤٢٢ هـ ، ويتضح من رسائله أن عدداً كبيراً من كبار دعاته أتوا بآراء جديدة على المذهب ، فالداعى سكين الذى كان رئيس الدعوة فى سوريا وأصدر له بهاء الدين تقليداً سنة ٤١٨ هـ ، ادعى أنه الإله المعبود ، وأنه الحاكم بأمر الله قد رجع من غيبته مما اضطر بهاء الدين إلى أن يكتب رسالة إلى الشيخ أبى اليقظان ليذهب إلى مكان معين ليقابل بهاء الدين ويطلعه على ما كان من أمر سكين ، كما كتب بهاء الدين رسالة أخرى سنة ٤٢٥ هـ ، تعرف برسالة الحقائق والإنذار والتأديب لجميع الخلائق بعث بها إلى أهالى جبل لبنان وأنطاكية وإقليم حوران ووادى التيم يشكو فيها من بعض الآراء التى انتشرت بينهم وهى آراء تختلف عن تعاليم حمزة بن على ، ورمى الشيوخ الذين ينشرون هذه الآراء بينهم بأنهم دجالون مخادعون .

هكذا كان جهاد بهاء الدين الضيف عنيفاً شاقًّا فالدولة التى كانت تؤازر العقيدة أيام الحاكم انقلبت تحاربها فى عهد على بن الحاكم المعروف بالظاهر ، وعاد المنافقون الذين اعتنقوا المذهب لأطماع شخصية وتحقيق منافع عاجلة يتلمسون الخلاص من ورطتهم ، كما أن الذين اعتنقوا المذهب خوفاً من الحاكم عادوا إلى عقيدة الفاطميين وكثرت الآراء الجديدة فى المذهب الأمر الذى جعل بهاء الدين يهدد أتباعه باعتزال الدعوة و بالفعل اعتزلها سنة ٤٣٤هـ ، بعد أن أقفل باب الاجتهاد حرصاً على المبادئ التى وضعها حمزة التميمى و بهاء الدين نفسه ، ولذلك لم يظهر

فقهاء مشرعون بعد بهاء الدين بل أصبح شيوخ الدروز يشرحون رسائل حمزة والتميمى وبهاء الدين ، وظل الموحدون فى هذه البقاع التى هم فيها إلى الآن دون أن يدخل غيرهم فى مذهبهم أوأن يبشروا بعقيدتهم . ويخيل إلى أن عقيدة غيبة الحاكم وحمزة وغيره من الحدود كان لها أثرها فى الناس ، فقد استغل الدجالون والمشعوذون هذا الرأى وادعوا من وقت لآخر قرب ظهور الحاكم ، أو أنه ظهر فعلا فى صورة من الصور ، ومن هؤلاء كان الداعى سكين الذى تقلد دعوة المذهب الجديدة فى الشام سنة ٤١٨ ه ، ولكنه سرعان ما أوهم جماعته بأن الإله المعبود حل به وخاصة أنه كان يشبه الحاكم فى ملامحه ، ثم جاء إلى مصر والتف حوله بعض مؤيديه ، وظهر سكين مع أصحابه على باب القصر الكبير بالقاهرة فى رجب سنة ٤٣٤ ه ، ونادى أصحابه بأنه الحاكم قد عاد ، فارتاع حرس القصر ، وتوقفوا عن صده ، غير أنهم سرعان ما عادوا إلى رشدهم وحملوا على سكين وأتباعه ، ودارت بين الفريقين معركة انهزم فيها أتباع سكين ، وقبض عليه ثم صلب مع جماعة من أتباعه .

وظهر بجبال صعيد مصر رجل قبطى اسمه شروط ، ادعى أنه الحاكم بأمر الله وأخذ يجبى الأموال باسمه ، وجردت الدولة رجالها للقبض عليه فلم تتمكن لأنه كان يختفى فى مغارات جبال الصعيد هو ورجاله ، وتسمى شروط بأبى العرب ، ثم نزح إلى إقليم البحيرة فى غرب الدلتا ونزل عند بعض قبائل البدو وهو يتظاهر بأنه الحاكم بأمر الله وأنه يقيم فى الصحراء بعيداً عن الناس لأمر لا يعرفه الناس إنما هى مسألة إلهية ، وتقول بعض المصادر الكنسية المصرية إن البطريق سانونيوس عرف مخبأه ، فأرسل إليه أموالا ورعاه .

وفى الكتب الدرزية المقدسة رسالة كتبها المقتنى بهاء الدين الضيف سنة ٤٢٦ ه نفهم منها أن شخصاً يعرف بابن الكردى ، اتخذ لنفسه رأياً يقرب من رأى سكين وأبى العرب مما جعل بهاء الدين يصفه بأنه « فرعون الدعى الكذاب المعتوه الشقى » .

وهكذا كانت عقيدة غيبة الحاكم وقرب عودته مثاراً لظهور عدة أشخاص يدعون بأنهم الحاكم بأمر الله مما يذكرنا بعقيدة المهدى المنتظر فكم من رجال ادعوا بأنهم المهدى هذا ! !

الباب الثالث

الفصل الأول

عقيدة الفاطميين أساس عقيدة الدروز

ذكرت من قبل أن الباحث فى عقيدة الدروز يجب أن يكون ملماً إلماماً تاماً بعقيدة الشيعة الفاطمية ، ولذلك رأيت أن أوجز هنا الحديث عن عقائد الفاطميين التى أعتبرها الأساس الأول لعقيدة الدروز ، فالمصطلحات المذهبية الفاطمية تكاد تكون هى المصطلحات المذهبية عند الدروز ،وأحياناً نرى الذين وضعوا عقيدة الدروز يستعملون مصطلحات الفاطميين لمدلولات جديدة كل الجدة ، ومع ذلك كله فهى ليست بعيدة كل البعد عن آراء الفاطميين ، وفى كتب أخرى غير هذا الكتاب ذكرت أن الفاطميين اتخذوا جميع الفلسفات والديانات المختلفة وصبغوها بالصبغة الإسلامية على مذهبهم وعقيدتهم .

هناك حقيقة يجب أن نسجلها فى حديثنا هنا ذلك أن الفاطميين جعلوا عقيدتهم تقوم على العمل والعلم أى ما يعرف بالظاهر والباطن . فالظاهر عندهم هو القيام بأداء جميع فرائض الدين الإسلامى التى وردت فى القرآن الكريم وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم فى ذلك لا يختلفون عن جمهور المسلمين فى شىء . وإذا قرأنا كتاب دعائم الإسلام الذى وضعه القاضى النعمان بن محمد ابن حيون المغربى وهو هذا الكتاب الذى اعتمد عليه كل الفقهاء الذين دانوا بالعقيدة الفاطمية بل لا يزالون يعتمدون عليه إلى الآن ، فسنجد أن دعائم الإسلام هى الصلاة والزكاة والطهارة والصوم والحج والجهاد والولاية ، وهذه كلها يجب أن يقوم بها ويؤديها كل من يعتنق هذه الدعوة الفاطمية كما أنهم يعترفون بجميع الأنبياء والرسل على نحو ما يؤمن به المسلمون ، هذا كله هو ظاهر العبادة العملية ولكن بجانب ذلك أوجدوا العبادة العلمية أو الباطنية وهى تقوم على أساس أن لكل عمل وكل قول تأويلا خاصاً

لا يعرفه إلا أئمتهم وعلماؤهم وهذا التأويل الباطنى هو الذى يفرقهم عن إخوانهم المسلمين وربما تبعد الهوة بينهم وبين المسلمين لغلو الفاطميين فى تأويلاتهم هذه وربما كان غلوهم فى التأويل الباطنى بسبب إسباغ مناقب خاصة وصفات عالية على أئمتهم وهذا ما حدث مع العقيدة الدرزية فسنرى أن الدروز اهتموا بالتأويل اهتماماً كبيراً جداً وتركوا الظاهر تركاً تاماً ومن هذا نرى الاتفاق التام بين تأويل الفاطميين وتأويل الدروز .

ذهب الفاطميون إلى أن الله سبحانه وتعالى منزه عن الصفات والأسماء لا شريك له وأنه ليس أيساً وليس ليساً ، فهو ليس من جنس العقول حتى تدركه العقول وليس بجسم حتى يراه البصر ولا يحل فى جسد ، فهم فى توحيدهم هذا يقربون من آراء المعتزلة وأنه سبحانه أبدع العقل الكلى الذى أطلق عليه الفاطميون اسم السابق واسم المبدع الأول واسم القلم ثم بواسطة المبدع الأول هذا وجدت النفس الكلية التى أطلقوا عليها اسم التالى واسم المبدع الثانى واسم اللوح المحفوظ وبواسطة السابق والثانى وجدت المخلوقات كلها العلوية والجسمانية وتمسكوا بالحديث المنسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم « أول ما خلق الله العقل فقال له أقبل فأقبل ، وقال له أدبر فأدبر فقال بعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً هو أعز منك ، بك أثيب وبك أعاقب » وذهبوا إلى أن العقل هو أرفع مبدعات الله وأقربهم إليه وهو عندهم « الخالق » الحقيقى وأولوا أسماء الله الحسنى الواردة فى القرآن الكريم إلى أنها أسماء للعقل الكلى هذا ، وقد بينت فى بحوثى السابقة عن الفاطميين أننا بتطبيق ما سميته بنظرية « المثل والممثول » نعرف أن الإمام الفاطمى هو ممثل للعقل الكلى وأن جميع مناقب وصفات العقل الكلى تطلق أيضاً على الإمام ، فهو الواحد الأحد والفرد الصمد ، المحيى والمميت . إلخ وكان لهذه العقيدة أثرها فى أن يغلو كثير من الذين اعتنقوا دعوتهم وذهب بعضهم إلى تأليه الأئمة الأمر الذى أدى بالمعز لدين الله الفاطمى إلى أن يتبرأ من هؤلاء الغلاة ، وتأليه الأئمة فكرة قديمة سبقت ظهور الإسلام فالمصريون القدماء كانوا يؤلهون ملوكهم وبعض الفرق المسيحية يؤلهون المسيح ونقلت هذه الآراء إلى بعض الفرق الإسلامية . فأبو الخطاب الأسدى مثلا تلميذ الإمام جعفر الصادق ادعى ألوهية أستاذه وأنه (أى أبا الخطاب) هو نبيه ، ولا يزال ورثة

آراء العلويين يقولون بتأليه على بن أبى طالب ، ونرى الآن الإسماعيلية الأغاخانية يقولون بألوهية أغاخان ، والدروز يقولون بتأليه « الحاكم بأمر الله » وأن حمزة ابن على بن أحمد هو نبيه ، وهكذا كانت عقيدة تأليه الملوك والأئمة تنتقل من العصور القديمة إلى أن ظهرت عند بعض الفرق الإسلامية بتأثير اختلاط الشعوب بعضها ببعض وتداخل الآراء الدينية وغير الدينية ، فالفاطميون لم يصرحوا بتأليه الأئمة ولكنهم أسبغوا على الأئمة صفات جعلتهم فوق مرتبة البشر مما جعل تأليه الأئمة أمراً سهلا ميسوراً عند الذين اعتنقوا دعوة الفاطميين .

وتتفرع من هذه العقيدة آراء أخرى نذكر منها انبعاث العقول الروحانية من العقل الكلى والنفس الكلية وأهم هذه العقول هى تلك التى أطلقوا عليها الجد والفتح والخيال وهؤلاء عندهم الملائكة الروحانيون الذين يعرفهم العالم الإسلامى باسم إسرافيل وميكائيل وجبرائيل ، وهؤلاء العقول مع العقل الكلى والنفس الكلية يكونون الأشباح الخمسة العلوية أو الحدود العلوية ، وجعلوهم ممثولات للقائمين على الدعوة الإسماعيلية فالعقل الكلى (السابق) ممثول للناطق فى عصره والوصى والإمام والنفس الكلية (التالى) ممثول للوصى فى حياة الناطق أو باب الأبواب .

والجد ممثول للحجة
والفتح « للداعى المأذون
الخيال « للداعى المكالب (المكاسر)

ومن ثم جعل الفاطميون مراتب الدعاة من المراتب الروحية التى تقام عليها دعوتهم وعلى كل من يعتنق مذهبهم أن يعترف بهؤلاء الدعاة على أن يكون هذا الاعتراف من صميم العقيدة ويجب طاعتهم طاعة عمياء وتصديق كل ما يقولون والاقتداء بما يفعلون ، وأطلق الفاطميون على هؤلاء الدعاة اسم الحدود الجسمانية إمعاناً فى تقديسهم ورفع شأنهم بين الناس ، بل ذهبوا إلى أن الناطق أو الإمام معصوم عصمة ذاتية وأن هؤلاء الدعاة معصومون عصمة مكتسبة ، وأن هؤلاء الدعاة كانوا مع النطقاء والأئمة فى كل دور من الأدوار الكبرى والأدوار الصغرى ؛ ولشرح ذلك نقول : إن الفاطميين لم يقولوا بالتناسخ فى صراحة بل سخروا من الذين يعتنقون فكرة التناسخ وناقشوا أصحاب هذه المقالة وها هوذا أحد شعراء العقيدة الفاطمية يقول :

والذى قال إنه النسخ والفسـ   خ وماذا بغير دنيا حلول
فهو عن جوهر النفوس البسيطا   ت ومن حيث بدئها مسئول
فلئن كان يثبت الأصل منهـا   فكذا نحوه يكون القفول
ولئن كان نافياً قيل مهلا   فلهذى المشاهدات أصول

وبالرغم من ذلك فإننا إذا أمعنا النظر فى عقيدتهم التى أطلقت عليها اسم « نظرية الدور فى العقيدة الفاطمية » فسنجد أنها تقول بظهور الأنبياء والأئمة فى صور متعددة ولكن أصلهم واحد، فآدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وهم الأنبياء عند الفاطميين ظهروا فى هذه الصور الآدمية المختلفة وفى عصور متفاوتة ولكنهم جميعاً شخص واحد فى الحقيقة، ولما كان أوصياؤهم وأئمتهم فى كل دور ورثة الأنبياء ولهم كلهم خصائص الأنبياء فهم والأنبياء شخص واحد، فالجميع مثل للعقل الكلى، ففكرة التناسخ ظهرت فى العقيدة الفاطمية فى صورة جديدة هى التى سميتها « بنظرية الدور »، وكان لهذه الفكرة أثر كبير فى الحياة العقلية عند بعض الفرق الإسلامية مثل فرقة المرزامية والمقنعية وسنتحدث عن أثرها عند الدروز، والدور الكبير هو الدور الذى من ظهور آدم النبى (الناطق) وظهور قائم القيامة (المهدى المنتظر) فإن آدم عندهم ليس أول الخلق بل هو أول ناطق فى دوره، وقد شهد العالم منذ وجد عدداً كبيراً كل منهم آدم وسيشهد العالم عدداً آخر، وينتهى دور كل منهم بظهور المهدى المنتظر، فهذه هى الأدوار الكبرى عندهم أما الأدوار الصغرى فهى التى بين ظهور ناطق وناطق، فالدور الذى بين ظهور آدم وظهور نوح هو الدور الصغير لآدم، ونحن الآن فى دور محمد وسينتهى دوره بظهور قائم القيامة وكذلك ينتهى دور آدم الكبير ويأتى بعده دور آدم آخر، وكما ذكرت من قبل الأدوار الكبرى متشابهة بما فيها الأدوار الصغرى، فكل ما حدث فى دور صغير حدث مثله تماماً فى جميع الأدوار الصغرى الأخرى فى نفس الدور الكبير وفى كل الأدوار الكبرى الأخرى.

وتنبعث من هذه الآراء تأويلات جديدة لما ورد فى القرآن الكريم من قصص الأنبياء لتحقيق الأدوار الكبرى والصغرى ولإثبات أن ما حدث فى دور كل نبى حدث مثله فى جميع الأدوار الأخرى، فمثلا قصة الطوفان فى التأويل الباطن

عند الفاطميين تدل على كثرة الأضداد المخالفين لمن أقامه الله وصياً لنوح وتغلبهم عليه وأن المؤمنين هم الذين اتبعوا الوصى الذى رمز إليه بسفينة نوح، وفى كل دور من أدوار النطقاء ظهر هذا الطوفان وجرت السفينة، وبهذا يؤولون القول المنسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم: « مثل أهل بيتى فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق فى الطوفان ».

وحواء أو المرأة التى ترد فى قصص الأنبياء ليس المعنى المقصود من ذكرها أنها الأنثى التى يسكن إليها الرجل، وينجب منها ذريته إنما هى فى التأويل الباطن رمز إلى حجة الناطق أو الإمام الذى يودعه الناطق علم الباطن فينقله إلى المستجيبين لتغذية أرواحهم وتربية المؤمنين بهذا العلم، وهكذا أول الفاطميون قصص الأنبياء تأويلا باطنياً تطبيقاً « لنظرية الدور » وإثبات أن جميع الأنبياء والأئمة هم فى الحقيقة شخص واحد لأنهم جميعاً مثل لممثول واحد وهو العقل، وكان لا بد لهم أيضاً أن يتخذوا تأويلات لكل آيات القرآن حتى تتسق مع عقيدتهم فى « الأدوار » و« المثل والممثول »، فالجنة عندهم هى الدعوة، والنار عدم موالاة الأئمة، والملائكة هم الدعاة، والكرسى والعرش هما الدعوة، والميزان والصراط المستقيم هما الإمام وهكذا.

واتخذ الفاطميون الأعداد أصولا لآراء دينية يثبتون بها عقيدتهم فى الإمامة، واتخـاذ الأعداد ليس بجديد على الفكر البشرى فنحن نعرف أن الفلسفة الفيثاغورية تقوم على أن كل عدد أصل لآرائهم، واتخذ العبرانيون العدد « سبعة » أصلا لكثير من عقائدهم وانتقل التسبيع إلى البابلية القديمة، واتخذ الحرنانيون العدد « خمسة » أصلا لعقيدتهم، ومن الفرق من اتخذ الثنوية، ومنهم من اتخذ التثليث، وهكذا ولكن الفاطميين لم يتخذوا عدداً بعينه بل كان لكل عدد عندهم فلسفة فقد قالوا بالازدواج والتثليث، واتخذوا العدد أربعة لفلسفة أركان الطبيعة، وقالوا بالعدد الخمسة الذى يمثل الحدود العلوية وهكذا إلى آخر الأعداد، فلكل عدد أصل عندهم ولم يقفوا عند عدد بعينه، ولكنهم لم يستخدموا حساب الجمل فى إثبات آرائهم مع أنهم استخدموا هذا العلم فى التنجيم فحساب الجمل كان معروفاً لديهم ولكنهم لم يعترفوا به فى أمور الدين مثل ما فعلوه مع الأعداد التى تشاهد فى ترتيب الخلق حتى قالوا: « إن الله أسس دينه على مثال خلقه ليستدل بخلقه

على دينه وبدينه على وحدانيته » فمثلا قولنا : « لا إله إلا الله » قالوا إن فيها أربع كلمات وفيها سبع مقاطع وعدد حروفها جميعها اثنا عشر ، وفيها نفى فى الأول وإثبات فى الآخر (النفى قولنا « لاإله » والإثبات فى قولنا « إلا الله ») والنفى والإثبات فصلان ، وتركيب الكلمة جميعها من ثلاثة أحرف « الألف واللام والهاء » وكثرت الأحرف بالتكرار فيكون فيها ثلاثة فصول ، ومجموع ذلك كله ثمانية وعشرون ، فأمثلة ذلك فى المخلوقات وفى الدين أن النفى والإثبات مثل الكواكب الثابتة وغير الثابتة ، والأحرف الثلاثة مثل الجواهر الثلاثة الشمس والقمر والنجوم ، والكلمات الأربع مثل الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ، والمقاطع السبعة مثل المدبرات السبعة والحروف الاثنا عشر مثل البروج الاثنى عشر هذا فى عالم السماء ، وفى عالم الأرض النفى والإثبات مثل العامر والخراب ، والجواهر الثلاثة مثل الطول والعرض والعمق ، والكلمات الأربع مثل التراب والمعادن والنبات والحيوان والمقاطع السبع مثل الأقاليم السبعة ، والحروف الاثنا عشر مثل الجزائر الاثنى عشرة وهكذا أوجدوا لكل عدد مثلا فى السماء والأرض والأيام واستدلوا بذلك كله على الدين وكذلك أولوا الفرائض الدينية كلها تأويلا خاصاً ، فالنية للصلاة هى ولاية الأئمة والطهارة هى أخذ علم الباطن لتطهير النفس ، والصلاة هى الدعوة الفاطمية ، والكعبة هى الإمام الذى يتوجه إليه المستجيب ، وهكذا . على أن هذا التأويل أو علم الباطن خص به الوصى إذ كان للنبى التنزيل ولعلى بن أبى طالب التأويل ، وكل حجة هو صاحب التأويل فى عصره ولذلك كان حجة الإمام هو الذى يعد مجالس الحكمة التأويلية التى يلقيها على جمهور المستجيبين ، ولما كان كل حجة يختلف عن الآخر فى ثقافته وذاتيته فقد اختلف التأويل الفاطمى باختلاف شخصية الدعاة وجاء تأويلهم تأويلا شخصياً ، ثم إنهم ستروا هذا التأويل عن الذين اعتنقوا العقيدة بحيث لم يطلعوا أحداً على أسرارها إلا لمن يستحقها فقط ، فتأويلات الداعى منصور اليمن الذى مهد للدعوة فى بلاد اليمن قبل ظهور الفاطميين بالمغرب تميل إلى الغلو وهى أشبه بما كان يقوله أصحاب فرق الغلاة مثل السلمانية والخطابية وغيرهما وتأويلات دعاة فارس بعد قيام الدولة الإسماعيلية الفاطمية بالمغرب تختلف عن تأويلات الدعاة الذين كانوا بالقرب من الأئمة بالمغرب إذ فى تأويلات دعاة فارس التأليه

الصريح للأئمة والدعوة إلى طرح الفرائض الدينية ، أما التأويل الباطن فى العصر الفاطمى فى مصر فقد زال الغلو إلى درجة أن الدعاة اضطروا إلى استنكار كل رأى يشم منه الغلو ، فمثلا كان الأئمة فى المغرب يدعون معرفة الغيب ، ولكنهم أنكروا هذه الدعوى وهم فى مصر ، واضطروا إلى تغيير كثير من تأويلاتهم الباطنية ، فتأويل « والفجر وليال عشر » فى المغرب أن الفجر هو على بن أبى طالب وكل إمام بعده ، وأن الشفع والوتر هما الحسن والحسين ولدا على بن أبى طالب ،ولكن فى مصر أول الفجر بأنه المهدى المنتظر المعروف عندهم باسم قائم القيامة لأنه يظهر بعد انتشار الضلال كما أن الفجر يأتى بعد شدة الظلام ، فبالرغم من أن تأويل الداعى بالمغرب يتفق فى هدفه الأخير مع تأويل الداعى فى مصر فإن هذا الأخير كان أكثر منه حذراً فى التصريح بأن الفجر هو الإمام ، وكان للنكت المصرية أثرها فى تخفيف غلو العقيدة الفاطمية ، ولا تزال كتب التاريخ تحمل فكاهات المصريين حول عقيدة الفاطميين والأئمة الفاطميين .

ومهما يكن من شىء فإننا سنرى أن عقيدة الدروز أخذت عقيدة عن الفاطميين ، وقد لاحظنا من قبل أن عقائد الفاطميين هى مجموعة من عقائد وفلسفات قديمة صيغت فى صورة إسلامية .

كتب الدروز المقدسة

قبل أن أشرح عقائد الدروز أرى أن ألم ببعض كتبهم المقدسة التى وقعت بين يدى ، ولا أدرى إن كان الدروز يحتفظون بكتب أخرى غير التى عندى أم لا ، فإنهم يحافظون محافظة شديدة على ستر كتبهم و يحرصون على ألا تقع فى أيدى غيرهم ، والذى ألاحظه على هذه الكتب أن بعضها يحتوى على سجلات صدرت فى عصر الحاكم وهذه السجلات إنما كتبها كتاب ديوان الإنشاء فى مصر ، و بعضها يحتوى على رسائل بعث بها حمزة بن على بن أحمد الملقب بهادى المستجيبين إلى أشخاص كانوا يحتلون مكانة فى الدولة مثل ولى العهد عبد الرحيم بن إلياس والقاضى أحمد ابن العوام ، وخمار بن جيش السليمانى العكاوى أو رسائل لدعاة الدعوة الذين لا نعرف شيئاً عن تاريخهم ، ومنها ما كتبه حمزة عن العقيدة نفسها ، ثم

نجد بعض رسائل للداعى محمد بن إسماعيل التميمى ، ورسائل لبهاء الدين المعروف بالمقتنى ، فحمزة بن على ومحمد بن إسماعيل وبهاء الدين هم الذين كتبوا هذه الرسائل التى تشتمل عليها كتب الدروز المقدسة ، على أن بعض هذه الرسائل ذكر فيها تاريخها وبعضها الآخر من غير تاريخ ،وكنا نود أن تكون الرسائل كلها مؤرخة حتى نستطيع أن نتتبع تطور عقيدة الدروز فى حياة حمزة وبعد حياته ، وما أضيف إلى العقيدة على يد المقتنى ، ولتركنا هذا البحث العلمي الدقيق الآن ولنا عودة إليه قريباً إن شاء الله .

وكتب الدروز التى بين يدى هى كما قلت مجموعات رسائل ، فالمجلد الأول يشتمل على الرسائل الآتية :

(١) السجل المعلق : وهو السجل الذى وجد معلقاً على المشاهد عقب غيبة الحاكم فتاريخه إذن سنة ٤١١ هـ ، ويخيل إلى أن هذا السجل لا يمت لعقيدة الدروز بشىء ، بل عندى أن الذى كتب هذا السجل هو كاتب الإنشاء بمصر أو حجة العراقيين أحمد حميد الدين الكرمانى لأنه يظهر لى من السجل أنه فاطمى العقيدة ، فالحاكم ليس بمعبود إنما هو ولى الله وخليفته فى أرضه وأنه أمير المؤمنين ثم الإشارة بدين الإسلام وبالرسول محمد عليه الصلاة والسلام فنجد فى السجل مثلا « ومن نعمه (أى من نعم الإمام الحاكم) الباطنة عليكم إحياؤه لسنن الإسلام والإيمان التى هى الدين عند الله وبه شرفتم وطهرتم . وعمر المساجد وزخرفها وأقام الصلاة فى أوقاتها والزكاة فى حقها وواجباتها ، وأقام الحج والجهاد وعمر بيت الله الحرام وأقام دعائم الإسلام » . إلى غير ذلك من الآراء التى رفض حمزة بن على الاعتراف بها فى رسائله التى كتبها سنة ٤٠٨ هـ .

(٢) السجل المنهى فيه عن الخمر . وهو صادر من ديوان الإنشاء سنة ٤٠٠ هـ وهو أيضاً من سجلات الفاطميين وليس من سجلات الدروز .

(٣) خبر اليهود والنصارى ، وهو رواية على لسان أحد الذين كانوا مع الحاكم بأمر الله حينما جاءه وفد من اليهود والنصارى يطلبون منه الأمان ، ولم يذكر لها تاريخ ، ويخيل إلى أنها من رسائل وكتابات دعاة الفاطميين أيضاً لما فيها من اعتراف بأن

الحاكم من أئمة شريعة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه كان يلقب فيها بأمير المؤمنين .

(٤) رسالة من القرمطى إلى الحاكم بأمر الله يتوعده ويهدده إن لم يسلم البلاد له ، وجواب الحاكم عليه .

(٥) ميثاق ولى الزمان ، وهو الميثاق الذى يؤخذ على كل مستجيب للعقيدة الدرزية .

(٦) كتاب النقض الخفى ، وتاريخه شهر صفر سنة ٤٠٨ هـ ، وهو من وضع حمزة بن على بن أحمد ، وهو الكتاب الذى نقض به حمزة الشرائع جميعاً وقال بالباطن المحض . ويظهر أن هذا الكتاب قد أضيفت إليه عبارات ونصوص بعد هذا التاريخ الذى أرخ به ، فإنى أجد فيه بيتين من قصيدة للمؤيد الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٠ هـ منسوبين للحاكم ، مع أن البيتين فى الإشادة بأن الأئمة من أهل بيت النبى هم الكعبة حسب التأويل الباطنى عند الفاطميين ، مع أن البيت عند حمزة هو توحيد الحاكم ، فلا يمكن إذن أن يستشهد بالبيتين فى هذا الموضع ، مما يدل على أنهما أضيفا بعد عصر حمزة ، وبعد أن أنشدهما المؤيد فى الدين .

(٧) الرسالة الموسومة ببدء الدعوة لتوحيد الحق وهى من رسائل حمزة كتبها فى رمضان سنة ٤٠٨ هـ ، وهى رسالة طويلة هامة ففيها التأويل الذى احتج به حمزة على اللاهوت وعن إسقاط الفرائض ثم الخصال التى فرضها على الموحدين .

(٨) ميثاق النساء وهى من كتابات حمزة أيضاً وليس بها تاريخ ، وبها العهود التى تؤخذ على النساء حتى يحتفظن بعفافهن ومكارم أخلاقهن ، مع الوصاية بمبادئ التوحيد .

(٩) رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد من تأليف حمزة بن على كتبها فى شهر المحرم سنة ٤٠٩ هـ .

وفى هذه الرسالة حديث هام عن مآل الكافرين ومصير الموحدين أى عن الثواب والعقاب وعما يعرف فى جميع الأديان بيوم القيامة .

(١٠) رسالة الغاية والنصيحة وهى من تأليف حمزة أيضاً كتبها فى ربيع الآخر سنة ٤٠٩ هـ .

وهى فى إثبات رسالته وفيها الحديث عن الخلاف بينه وبين الدرزى وابن الحبال وغيرهما .

(١١) كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا الحاكم من الهزل من كتابات حمزة وهى بدون تاريخ ولكن يظهر أنها كتبت قبل اختفاء الحاكم سنة ٤١١ هـ ، وفيها تأويل ما كان يفعله الحاكم يوميًا ، وقد نقلنا منها فصلا كبيراً فى حديثنا عن الحاكم .

(١٢) السيرة المستقيمة ، وهى من كتابات حمزة كتبها فى جمادى الأخرى سنة ٤٠٩ هـ ، وهى فى الأدوار الكبرى والصغرى والحدود .

(١٣) كشف الحقائق من كتابات حمزة بتاريخ رمضان سنة ٤٠٩ هـ ، وهى فى حدود الدين والفرق بين الحدود عند الفاطميين والحدود فى دعوة الحاكم ، فى لاهوت المعبود وناسوته .

(١٤) رسالة سبب الأسباب وهى من كتابات حمزة وبدون تاريخ فيها حديث عن الدعاة ، وعن رسالته إلى الناس وسبب تسمية نفسه علة العلل وتأويل بسم الله الرحمن الرحيم . هذه هى الرسائل التى يشتمل عليها المجلد الأول من كتب الدروز المقدسة ، أما المجلد الثانى فهو يشتمل على الرسائل الآتية :

(١) الرسالة الدامغة فى الرد على النصيرى : وهى من رسائل حمزة ، وهى من أهم الرسائل التى وردت فى هذا المجلد لأنها تعطينا فكرة عن آراء بعض الفرق التى طرحت الأديان كلها واتجهت إلى الإباحية الجنسية بحيث إن المؤمنة بهذه العقيدة لا تمنع نفسها عن أحد إخوانها ، كما أن بها لوناً من شيوعية المال ، وهذه الآراء تخالف عقيدة الدروز ، ثم تعطينا الرسالة فكرة عن الثواب والعقاب عند النصيرية والدروز إلى غير ذلك من الآراء التى تفيد المؤرخين .

(٢) رسالة الرضى والتسليم : كتبها حمزة بن على فى ربيع الآخر سنة ٤٠٨ هـ فيها تأويلات لإثبات الألوهية وتدعيم مركزه فى الدعوة وما كان من مخالفة الدرزى وإخوانه له وما سيكون فى الآخرة لكل من الموحدين والمخالفين .

(٣) رسالة التنزيه : كتبها حمزة فى شهر جمادى الآخرة سنة ٤٠٩ هـ ،

وفيها ذكر للحدود وبيان مراتبهم ، والفرق بين الحدود عند الفاطميين والحدود عند حمزة .

(٤) رسالة النساء الكبرى : لم يذكر كاتبها ولا تاريخها ويخيل إلى أنها بقلم إسماعيل بن محمد التميمى فأسلوبها أقرب إلى أسلوبه من كتابات حمزة ، ثم إنها أقرب إلى المجالس التى كانت تلقى فيها تعاليم الدعوة ، وفيها نتبين أن دعاة حمزة كانوا يعقدون مجالس خاصة بالنساء أسوة بما كان يتبع فى الدعوة الفاطمية . وهذا المجلس يتحدث عن التأليه وعن تأويل بعض السجلات التى أظهرها الحاكم وتأويل أركان الدين الإسلامى والحض على التمسك بالفضائل .

(٥) الصبحة الكائنة : وهى من رسائل حمزة كتبها فى شعبان سنة ٤٠٨ هـ بعث بها إلى الدعاة من أصحاب الدرزى الذين اعتقلهم الحاكم وفيها عتاب لهم لاتباعهم الدرزى بعد أن كانوا من أتباع حمزة ، وكيف حذرهم حمزة ليلة الثورة الكبرى التى قام بها المصريون ضد دعاة التأليه عند قصر الحاكم ، وكيف هرب حمزة والتجأ إلى مخبأ ، فهذه الرسالة مهمة من الناحية التاريخية فإن ما بها من حوادث لا نجد مثيلا لها فى كتب التاريخ .

(٦) سجل المجتبى : من رسائل حمزة وهى خاصة بتعيين إسماعيل بن محمد التميمى فى مرتبته الدينية ، وما يتبع ذلك من ألقاب وتحديد عمله .

(٧) تقليد الرضى : من رسائل حمزة وهى خاصة بتعيين أبى عبد الله محمد ابن وهب فى مرتبته الدينية .

(٨) تقليد المقتنى : من رسائل حمزة وهى خاصة بتعيين أبى الحسن على بن أحمد السموقى فى مرتبته الدينية .

(٩) رسالة حمزة إلى أهل الكدية البيضاء : يدعوهم إلى سؤال نقيب النقباء حسن بن هبة الرفا فى أمورهم .

(١٠) رسالة حمزة إلى الموحدين من أهل أنصنا (إسنا الحالية من مدن صعيد مصر) : كتبها فى عشرة جمادى الآخرة سنة ٤١٠ هـ ، يدعوهم إلى الصبر والتسليم لقضاء الله .

(١١) شرط الإمام صاحب الكشف : لم يذكر كاتبها ولا تاريخها ، والهام فى هذه الرسالة هو المعاملة الزوجية .

(١٢) رسالة إلى ولى العهد عبد الرحيم بن إلياس وهى من رسائل حمزة، وفيها يدعوه حمزة إلى الاعتراف بألوهية الحاكم .

(١٣) رسالة إلى خمار بن جيش السليمانى العكاوى : وهى من رسائل حمزة وفيها يحذره من القول بأنه أخو الحاكم.

(١٤) رسالة إلى قاضى القضاة أحمد بن العوام: وهى من رسائل حمزة يدعوه فيها إلى خلع نفسه لأن أحكامه لا قيمة لها لأنه لا يخضع لألوهية الحاكم .

(١٥) مناجاة ولى الحق : وهى بمثابة الأوراد التى يتلوها الصوفية .

(١٦) الدعاء المستجاب : وهذه مناجاة أخرى .

(١٧) التقديس دعاء الصادقين : وهذه دعاة ثالثة .

(١٨) ذكر معرفة الإمام : وهى أسماء وألقاب الحدود .

(١٩) رسالة التحذير والتنبيه ، وهى من رسائل حمزة وفيها الحديث عن مكانته ومرتبته وأنه هو الإمام والناطق الحقيقى الذى خلقه الله قبل أن يخلق السموات والأرض .

(٢٠) رسالة الإعذار والإنذار ، وهى من رسائل حمزة وتتحدث عن ضرورة التمسك بعقيدة التوحيد ومعرفة الحدود وما سيناله الموحد من ثواب على يد حمزة .

(٢١) رسالة الغيبة وهى الرسالة التى بعث بها الدعاة من القاهرة إلى الموحدين بالشام على يد الدعى أبى يعلى بعد شهور من غيبة الحاكم فيكون تاريخها إذن سنة ٤١١ هـ ، وهى فى الحض على الاستمساك بالعقيدة وعدم التخاذل أو الرجوع عنها بعد غيبة الحاكم .

(٢٢) كتاب فيه تقسيم العلوم من تأليف إسماعيل بن محمد التميمى وتاريخ كتابته المحرم سنة ٤١٠ هـ ، وهو كتاب يجمع التفريق بين اللاهوت والناسوت والحدود فى كل دور ، وحدود دعوة حمزة .

(٢٣) رسالة الزناد وهى من تأليف إسماعيل بن محمد التميمى ولا يعرف تاريخها وفيها يشبه النفس بالحجر فإذا لم تجد النفس ما يهذبها و يعلمها مالت إلى الجهل

شأن الحجر إذا حركه القادح اندفع منه الشرار .

(٢٤) رسالة الشمعة : من تأليف إسماعيل بن محمد التميمى وكتبت فى عهد الحاكم لأنها رفعت إليه ، وفيها تمثيل حدود الدعوة بأجزاء الشمعة .

(٢٥) رسالة الرشد والهداية : من تأليف إسماعيل بن محمد فيها تحذير ووعد ووعيد .

(٢٦) شعر النفس : وهى قصيدة بث إسماعيل بن محمد بها عقيدة التوحيد .

أما المجلد الثالث الذى بين يدى فأكثر ما به رسائل كتبها المقتنى بهاء الدين الضيف ولم يذكر تاريخ أكثر هذه الرسائل ، أما الرسائل فهى :

(١) الوصايا السبع للموحدين .

(٢) رسالة التنبيه والتأنيب والتوبيخ والتوقيت كتبها بهاء الدين سنة ٤٢٢ هـ ، إلى معاد بن محمد وطاهر بن تميم الداعيين اللذين لم يثبتا على عقيدتهما ، وبالرسالة حث على التظاهر بمذهب التوحيد أثناء غيبة المعبود .

(٣) رسالة فى مثل ضرب به بعض حكماء الديانة توبيخاً لمن قصر عن حفظ الأمانة

(٤) رسالة إلى بنى أبى حمار ، وهى من رسائل المقتنى أيضاً وفيها حديث عن أن الألوهية لم تنتقل من الحاكم بأمر الله إلى ولده على المعروف بالظاهر.

(٥) مرسوم بتقليد الشيخ المختار فى مرتبة لاحق، وهو بتاريخ سنة ٤١٨ هـ ،

(٦) مرسوم تقليد سكين الذى أصبح رئيس المذهب فى سوريا ثم عاد وادعى أن الإله حل به ، وأنه هو الحاكم ، والتقليد صدر سنة ٤١٨ هـ .

(٧) تقليد الشيخ أبى الكتائب .

(٨) تقليد الأمير ذى المحامد أبى الفوارس معضاد بن يوسف ، وكان أحد الدعاة تحت الداعى سكين .

(٩) تقليد بنى الجراح ، ونحن نعلم أن بنى الجراح الطائيين كانوا قد ثاروا على الحاكم إبان حياته واستدعوا شريف مكة الحسن بن جعفر وبايعوه خليفة عليهم ولقبوه بأمير المؤمنين الراشد لدين الله ، واستفحل أمر بنى الجراح حتى بسطوا نفوذهم على جنوب الشام كله ثم صانعهم الحاكم واستمالهم بالأموال والهدايا والخلع

حتى عادوا إلى طاعته ، وها هم أولاء يعتنقون عقيدة ألوهية الحاكم ويصدر إليهم بهاء الدين تقليداً بذلك .

(١٠) الرسالة الجمهيرية ، كتبها بهاء الدين سنة ٤١٨ هـ ، إلى بعض الدعاة والمشايخ التنوخيين بوادى التيم وجبل لبنان .

(١١) رسالة التعنيف والتهجين بعث بها إلى جماعة من قبيلة كتامة كانوا يسكنون مدينة سنهور بمصر .

(١٢) رسالة الوادى . بعث بها إلى الدعاة فى قرية الوادى إحدى قرى محافظة الشرقية بالجمهورية العربية المتحدة .

(١٣) رسالة القسطنطينية وهى الرسالة التى بعث بها بهاء الدين المقتنى إلى الإمبراطور قسطنطين إمبراطور الروم سنة ٤١٩ هـ ، يدعوه فيها إلى الدخول هو وشعبه فى مذهب التوحيد .

(١٤) الرسالة المسيحية وأم القلائد النسكية وقامعة العقائد الشركية بعث بها إلى المسيحيين جميعاً يثبت لهم فيها أن حمزة بن على هو المسيح حقاً ، وأنهم على ضلال إن لم يؤمنوا بعقيدة التوحيد .

(١٥) رسالة التعقيب والافتقاد ، وفى هذه الرسالة ذكر رسالة أخرى اسمها الرسالة النورانية ، وهذه الرسائل التى تبدأ من الرسالة القسطنطينية ، تكالب رجال الدين المسيحى وتؤول آيات الإنجيل تأويلات تتفق مع عقيدة التأليه ، ورسالة التعقيب هذه بعث بها بهاء الدين إلى الأمير ميخائيل صهر الإمبراطور قسطنطين .

(١٦) رسالة الإيقاظ والبشارة لأهل الغفلة وأهل الحق والطهارة ، تاريخها سنة ٤٢٣ هـ ، بعث بها إلى أهل العراقين وفارس ، وفيها البشارة بقرب ظهور حمزة بن على .

(١٧) رسالة الحقائق والإنذار والتأديب لجميع الخلائق ، تاريخها سنة ٤٢٥ هـ أرسلت للذين اعتنقوا الدعوة فى لبنان ووادى التيم والجبل الأعلى ، وفيها يشكو بهاء الدين من بعض الآراء الجديدة التى كان يذيعها بعض شيوخ المذهب فى هذه البقاع جهلا منهم بحقيقة المذهب والعقيدة .

(١٨) الرسالة الشافية لنفوس الموحدين ، وهى فى وعظ الموحدين ومحاولة

تثبيت عقيدتهم وعدم تزعزع إيمانهم .

(١٩) رسالة العرب ، بعث بها إلى أهل سوريا والحجاز واليمن والجزيرة والعراقين وصعيد مصر ، يدعوهم فيها إلى مذهب التوحيد .

(٢٠) رسالة اليمن ، كتبها سنة ٤٢٥ هـ إلى الموحدين باليمن .

(٢١) رسالة الهند ، بعث بها سنة ٤٢٥ هـ إلى الشيخ الرشيد ابن صومار راجا بال بالهند ، ويتضح من هذه الرسالة أنه كان فى إقليم السند وفى الملتان عدد من الذين اعتنقوا مذهب التوحيد ، ونحن نعلم أن هذه المنطقة بالهند كان بها عدد كبير من الإسماعيلية .

(٢٢) رسالة التقريع والبيان وإقامة الحجة لولى الزمان . بعث بها إلى أهالى القاهرة والفسطاط ، يعتب عليهم عدم تصديق دعوى ألوهية الحاكم .

(٢٣) رسالة تأديب العاق من الأولاد ، وهى فى الحديث عن تناسخ الأرواح وكيف تتغير صور العاصين الذين لا يعترفون بألوهية الحاكم بأمر الله .

(٢٤) الرسالة القامعة ، كتبها بهاء الدين سنة ٤٢٦هـ يرد فيها على ابن الكردى الذى ادعى أن روح الحاكم حلت به .

(٢٥) كتاب أبى اليقظان ، وهذه رسالة بعث بها بهاء الدين إلى الشيخ أبى اليقظان ليذهب لمقابلته فى مكان منفرد ليحدث بهاء الدين عن حالة الدعوة بعد أن أظهر سكين أنه الحاكم .

(٢٦) رسالة تمييز الموحدين الطائعين من حزب العصاة الفسقة الناكثين .

(٢٧) رسالة من دون قائم الزمان والهادى إلى طاعة الرحمن .

(٢٨) رسالة السفر إلى السادة كتبها بهاء الدين سنة ٤٣٠ هـ إلى جملة من مشايخ العرب يدعوهم إلى الطاعة .

أما المخطوطة الرابعة فهى مجموعة رسائل هامة تدلنا على مقدار الشقاء الذى عنى به بهاء الدين لكثرة ظهور البدع فى المذهب ، وقيام المنافقين ، وكيف كان بهاء الدين يرسل إليهم يوبخهم ويدعوهم إلى التوبة ، ولعل هذه المجموعة من أهم الكتب فى تاريخ العقيدة بعد غيبة الحاكم وحمزة ، وقد اضطر بهاء الدين أخيراً إلى الغيبة بعد أن يئس من إصلاح رعيته . أما الرسائل التى اشتملت عليها هذه المجموعة فهى :

١ – رسالة معراج نجاة الموحدين ، وهى فى البشارة لمن اعتنق المذهب .

٢ – رسالة فى ذكر المعاد ، وهى فى الحديث عن المعاد حسب عقيدتهم والرد على من عبر بالغلط والإلحاد .

٣ – رسالة التبيين والاستدراك وهى فى شرح بعض العقائد والفرق بين الإلحاد والشرك .

٤ – الرسالة الإسرائيلية ، وهى فى الرد على عقائد اليهود الذين اعتبرهم بهاء الدين ألد أعداء مذهبه .

٥ – الرسالة الموسومة بواحد وسبعين سؤالا ، وهى عبارة عن أسئلة وجهت إلى بهاء الدين من مخالفى عقيدته ورده عليها ، وهى من أقوم الرسائل المذهبية وتحتوى على آراء جديدة كل الجدة لم نعرفها فى رسائل حمزة .

٦ – رسالة إيضاح التوحيد ، وفيها الرد على من ينكر ألوهية الحاكم .

٧ – رسالة فى ذكر الرد على أهل التأويل (أى على اتباع المذهب الفاطمى) الذين ينكرون ظهور المعبود فى الصور المختلفة .

٨ – توبيخ ابن البربرية ، وهى الرسالة المعروفة بالدامغة للفاسق النجس ، الفاضحة لأتباعه أهل الردة والبلس .

٩ – توبيخ لاحق .

١٠ – توبيخ الخائب العاجز سكين .

١١ – توبيخ ابن أبى حصين .

١٢ – توبيخ سهل .

١٣ – توبيخ ابن معلى .

١٤ – توبيخ الخائب محلّى .

١٥ – رسالة البنات الكبيرة .

١٦ – رسالة البنات الصغيرة .

١٧ – رسالة فى الرد على المنجمين .

١٨ – رسالة بدء الخالق ، وهى فى الرد على سؤال أحد أتباعه .

١٩ – رسالة الموعظة .

٢٠ – رسالة المواجهة ، يظهر أن بهاء الدين بعث بها إلى حمزة يوصى بأحد الأشخاص .

٢١ – مكاتبة الشيخ أبى الكتائب ، بتفويضه والإذن له بالدعوة .

٢٢ – منشور إلى آل عبد الله .

٢٣ – جواب كتاب السادة ، وهى جواب عن رسالة بعث بها جماعة من لبنان إلى بهاء الدين .

٢٤ – الكتابة المنفذة على يد سرايا ، وهى رسالة تتعلق ببعض أمور تجارية .

٢٥ – مكاتبة تذكرة .

٢٦ – مكاتبة نصر بن فتوح .

٢٧ – السجل الوارد إلى نصر .

٢٨ – منشور الشيخ أبى المعالى الطاهر .

٢٩ – منشور إلى جماعة أبى تراب .

٣٠ – رسالة جبل السماق ، بعث بها بهاء الدين لأتباعه يبشرهم بظهور حمزة ابن على سنة ٤٢٨ هـ ، وتوليته شئون الموحدين مرة أخرى .

٣١ – منشور إلى آل عبد الله وآل سليمان .

٣٢ – منشور إلى أبى على التنوخى .

٣٣ – منشور إلى أبى الخير سلامة .

٣٤ – منشور الشرط وهى فى الرد على بعض المشايخ .

٣٥ – مكاتبة إلى الشيوخ الأوابين .

٣٦ – منشور فى ذكر إقالة سعد .

٣٧ – مكاتبة إلى الشيخ أبى المعالى .

٣٨ – منشور إلى المحل الأزهر الشريف .

٣٩ – منشور نصر بن فتوح .

٤٠ – مكاتبة رمز إلى آل أبى تراب .

٤١ – الرسالة الواصلة إلى الجبل الأنور .

٤٢ – رسالة الشيخ أبى المعالى .

٤٣ — رسالة الغيبة ، وهى وداع بهاء الدين للموحدين تصميمه على الغيبة ، وبراءته من تعاليم لاحق وسكين وغيرهما من التعاليم الفاسدة .

هذه هى الكتب المقدسة للدروز التى اعتمدت عليها فى دراستى لهذه الطائفة ولا أغالى إذا قلت إن هذه الكتب ثروة تاريخية يجب أن يرجع إليها كل مؤرخ أو باحث فى تاريخنا العربى لأنها تشتمل على معلومات دقيقة لا أشك فى صحتها ولا توجد فى كتب التاريخ المعروفة ، ولهذا فإنى أنتهز هذه الفرصة وأوجه نظر السادة المؤرخين إلى الحقائق التاريخية التى فى كتب الدروز المقدسة .

الفصل الثانى

فى التوحيد

١ — لاهوت المعبود وناسوته

لعل أهم عقيدة نراها فى كتب ورسائل حمزة بن على أن للحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لا تدرك بالحواس ولا بالأوهام ، ولا تعرف بالرأى ولا بالقياس — ومهما حاول الإنسان أن يفكر فيه لمعرفة كنهه فهو يحاول محاولة فاشلة لأن لاهوته ليس له مكان ولكن لا يخلو منه مكان — وليس بظاهر كما أنه ليس بباطن ، ولا يوجد اسم من الأسماء يمكن أن يطلق عليه لأنه لا يدخل تحت الأسماء ، إذ لا يتصف بصفات ، ولا يمكن التعبير عنه بلغة من اللغات ، فهو ليس بشخص وليس بجسم وليس بشبح وليس بصورة ، فلا يقال عنه إنه جوهر أو يقال إنه عرض . « ولا أقول إنه شىء فيكون محمولا عليه . ولا هو فى شىء فيكون محاطاً به ، ولا متعلق بشىء فيكون قد التجأ إليه » . فالمعبود على هذا النحو ليس له حد وهو واحد لا يشبه الكائنات فى شىء . ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً — لم يلد ولم يولد ، لا تنسب إليه حركة ولا راحة ، وهو البداية والنهاية ، فإذا تحدث عنه متحدث ووصفه بصفة ما فإنما يقول ذلك ضرورة وتقريباً للعقول والأفهام لعجز المتحدث عن الوصول إلى حقيقة المعبود ، فإذا قال مثلا إنه تعالى بارئ كل شىء ، ومكوّن كل شىء وأنه معل علة العلل القديم الأزل ، فلا يقال ذلك عن حقيقة المعبود لأن حقيقة المعبود تعجز عن الوصول إليها .

وهكذا جرى ذكر التوحيد فى كتب الدروز المقدسة . وحديثهم عن لاهوتية المعبود يتفق تمام الاتفاق مع ماورد فى كتب الدعوة الفاطمية عن الله سبحانه وتعالى ، ففى كتاب راحة العقل مثلا — وهو كتاب ألفه أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى الذى كان يعاصر حمزة بن على ، وهو صاحب رسالة مباسم البشارات

بالإمام الحاكم الذى نشرناه فى هذا الكتاب — نجد سوراً كاملا ذا سبعة مشارع فى التوحيد والتقديس وحديثه فى ذلك كله هو حديث كتب الدروز المقدسة ، فقد جعل الكرمانى المشرع الأول من كتابه فى بطلان كونه تعالى ليسا ، والمشرع الثانى فى بطلان كونه تعالى أيسا ، والمشرع الثالث فى أنه تعالى لا ينال بصفة من الصفات وأنه لا بجسم ولا فى جسم ولا بعقل ذاته عاقل ، وتحدث فى المشرع الرابع عن أنه تعالى لا صورة ولا مادة ، والمشرع الخامس فى أنه تعالى لا ضد له ولا مثل ، والمشرع السادس فى أنه لا يوجد فى اللغات ما يمكن الإعراب عنه بما يليق به ، ثم ختم السور بالمشرع السابع الذى جعله فى أن أصدق قول فى التوحيد والتسبيح والتمجيد والإثبات ما يكون من قبيل نفى الصفات الموجودة فى الموجودات وسلبها عنه تعالى .

هذه هى آراء الدعوة الفاطمية فى التوحيد ذكرها الكرمانى فى كتابه راحة العقل كما ذكرها غير الكرمانى من علماء دعوة الفاطميين ، وهى كلها آراء يقول بها جمهرة المسلمين من جمهور أهل السنة والشيعة الاثنى عشرية والزيدية لم يشذ عنهم إلا جماعة من الحشوية أو المشبهة ، وها هم الموحدون الذين يعرفون خطأ بالدروز يأخذون هذه الآراء ويجعلونها فى لاهوت معبودهم الحاكم بأمر الله ، ففى كتبهم المقدسة نرى قولهم فى رسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد « ومولانا سبحانه معل علة العلل جل ذكره وعز اسمه ولا معبود سواه ليس له شبه فى الجسمانيين ولا ضد فى الجرمانيين ولا كفء فى الروحانيين ولا نظير فى النفسانيين ولا مقام له فى النورانيين » وقولهم : « سبحان مولانا جل ذكره عن إحاطة الأشياء به ، وعز سلطانه عن حكومة الألسن والأوهام عليه ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » أو قولهم « وسلطان لاهوته لا يدرك بالعين ولا يعرف بالكيف والأين » . وورد فى رسالة سبب الأسباب « فقولى توكلت على مولانا جل ذكره أردت به لاهوت مولانا الذى لا يدرك بوهم ولا يدخل فى الخواطر والفهم . ما من العالمين أحد إلا هو معهم وهم لا يبصرون ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهو جل ذكره أعظم من أن يوصف أو يدرك ، ومن اتكل عليه فهو يكفيه جميع مهماته » .

وهكذا نرى الدروز فى توحيدهم لمعبودهم لا يخرجون عن توحيد المسلمين لخالقهم سبحانه وتعالى ، غير أن الدروز يقولون إن معبودهم يتخذ له من حين لآخر مقامات

ناسوتية ، ففى رسالة الغيبة . . « أظهر لنا ناسوت صورته تأنيساً للصور ، فحار فيها الفكر حين فكر ، وعجزت العقول عن إدراك أفعالها واعترفت بالعجز والتقصير فى معلومها . . . فبتقدير أحكامه مَنّ على خلقه بوجود صورته من جنس صورهم ، فخاطبتم الصورة بالمألوف من أسمائهم فأنست العقول إلى ظاهر صورته واستدرجتهم إلى معرفته بلطيف حكمته امتناناً منه على خلقه » ومن كلام إسماعيل التميمى فى كتابه المرسوم بكتاب فيه تقسيم العلوم وإثبات الحق وكشف المكنون يقول « فلا نقول إن هذه الصورة المرئية هى هو فنجعله محصوراً محدوداً جل وعز عن ذلك وتعالى علواً كبيراً . بل نقول إن هو هى استتاراً وتقرباً وتأنيساً بغير حد ولا شبه ولا مثل ، فمثل هذه الصورة كالسراب الذى تعاينه ماء فإذا جئته بحد العيان لم تجده ماء ، كذلك هذه الصورة الظاهرة تراها بعين الطبيعة فتظنها صورة كصورتك فإذا دنوت منها بعين العلم لم تجدها صورة ووجدت الله عندها » .

ومعنى هذا كله أن الإمام الفاطمى المعروف « بالحاكم بأمر الله » هو عند الدروز بشر فى الأعين المجردة ، ويعيش بين الناس كما يعيش غيره من البشر ، ذلك عند الذين لا يعرفون حقيقته ، أما الدروز الذين عرفوا حقيقته فيذهبون إلى أن الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة إنسية سماها الناس « الحاكم بأمر الله » مثل ما يتخذ الإنسان ثيابه فيرتديها ثم يطرحها ويرتدى غيرها ، والثياب ليست من جنس من يرتديها ولا تشبهه فى شىء ، وكذلك الإله المعبود ليس من جنس الصورة التى اتخذها ولا هى شبيهة به ، وهو يظهر فى هذه الصور الناسوتية المتغيرة ، ففى كل عصر ظهر فيه اتخذ صورة ناسوتية تختلف عن الأخرى ، وفى رسالة السيرة المستقيمة حديث طويل عن الأدوار التى أظهر فيها المعبود ناسوته لأن المعبود لو لم يظهر ناسوته من حين لآخر لكان الناس يعبدون العدم ، وقد ظهر المعبود فى صور بشرية عشر مرات ، وكان أول مرة ظهر فيها ناسوت المعبود ببلاد الهند فى بلد يقال لها تشماتش ، وظهر مرة فى مدينة أصفهان بفارس فى صورة « البا » ولذلك يقول الفرس « بارخداى » يعنى الله ، وظهر مرة فى اليمن فى صورة شخص يعرف بعلى ، وظهر مرة أخرى ببلاد المغرب فى صورة شخص يعرف بالمؤئل . وكان إنساناً ثرياً يمتلك أكثر من ألف جمل .

ولأول مرة يظهر فى صورة ملك عندما ظهر فى شخصية القائم بأمر الله

الفاطمى ، ثم ظهر فى شخصية أبى زكريا القرمطى ثم المنصور بالله ثم المعز لدين الله ثم العزيز بالله ثم الحاكم بأمر الله ، وليس لنا أن نناقش هذه العقيدة إلا أننا نحب أن نسجل أن ظهور أبى زكريا القرمطى كان أسبق من ظهور القائم بأمر الله ، ثم قولهم إن القائم كان بمصر وبنى بها باباً يسمى الرشيدية — كل ذلك بعيد عن الحقيقة التاريخية ، حقيقة حاول القائم بأمر الله فتح مصر أكثر من مرة ولكنه لم يوفق ، فكيف أقام بها وشيد بها باباً ؟ !

وفى رسالة السيرة المستقيمة هذه حديث طويل عن ظهور ناسوت المعبود فى صورة القائم من ذلك أنه سمى بالقائم لأنه أول ماظهر للعالم بالملك والبشرية ، فقد أظهر نفسه وتسمى باسم عبد من عبيده لأن العبيد عاجزون عن النظر إلى توحيد باريهم إلا من حيث هم وفى صورهم البشرية فأوجبت الحكمة والعدل أن يتسمى بأسمائهم حتى يدركوا بعض حقائقه ، فأقام للموحدين قسطه أى عدله ، وأقام قواعد توحيده التى هى تمام البناء فى وقتنا هذا بمشيئته ؛ وفرق كاتب هذه الرسالة بين « القائم » وبين المصطلح الفاطمى والدرزى أيضاً « قائم الزمان » فهو يقول : « لا يجوز لأحد من الموحدين أن يقول لمولانا قائم الزمان لأن اسم القائم بالألف واللام ولا يجوز أيضاً أن يقول لعبده القائم بل ينقص منه الألف واللام ، لأن قائم أربعة أحرف وهم حروف الله ، والله هو الداعى ، والله أعنى بالحقيقة هو الإمام ، وإمام أربعة أحرف ، والداعى والإمام والله كلهم عبيد لمولانا القائم العالم الحاكم جل ذكره ، والألف واللام الزائدتان فى اسم مولانا جل ذكره لنفى التشبيه عنه ، لأنهما « لا » (؟ ؟) أى لا شبه له فى المخلوقين ولا شريك له فى القدرة والكمال ، وعبده يقال له قائم أى قائم بحدود التوحيد وليس له قدرة ولا كمال ؛ والقائم ستة أحرف وهو معبود ، وقائم أربعة أحرف وهو عبد ، وبين العبد والمعبود أيضاً حرفان ، الميم والواو ، والميم فى الحساب أربعون ، والواو ستة دليل على أن الحدود ستة وأربعون وهم حدود الإمامة والتوحيد لمولانا القائم العالم الحاكم لا لعبده الذى هو قائم بهؤلاء الحدود ، وهم العقل والنفس والكلمة والسابق واثنا عشر حجة والتالى من جملة الاثنى عشر وثلاثون داعياً ؛ فذلك ستة وأربعون حداً لمولانا القائم وهو الذى أقام القوة لقائم هؤلاء الحدود أى إمامهم . وبهذا السبب والحكمة تسمى مولانا جل ذكره بالقائم ؟ » ! !

ويعود كاتب الرسالة إلى الحديث عن ظهور المعبود مرة أخرى فى صورة الحاكم فيقول :

« والآن فقد دارت الأدوار وبطل ما كان فى جميع الأعصار ، ولم يبق من نار الشريعة الشركية غير لهيبها والشرار ، وسوف يخمد حسرها ويضمحل العوار ، فقد بدأت ظهور نقطة البيكار (أى ظهور حمزة بن على) بتوحيد مولانا البار الملك الجبار العزيز الغفار المعز القهار الحاكم الأحد الفرد الصمد المنزه عن الصاحبة والولد ، فلمولانا الحمد والشكر على ظهور نور الأنوار ، وخروج ما كان مدفوناً تحت الجدار ، فقد أنعم علينا وعليكم بمباشرته فى البشرية وظهوره لكم فى الصورة المرئية كيما تدركون بعض ناسوته الإنسية ، ولا أقول ذاته أو نفسه أو صورته أو معناه أو صفاته أو حجابه أو مقامه أو وجهه إلا ضرورة على قدر استطاعة المستجيبين وما يفهمه المستمعون وتعيه عقولهم ويدخل فى خواطرهم » ثم ذكر أن الدليل الأكبر على أن الحاكم بأمر الله هو ناسوت المعبود ، وأنه ليس بابن العزيز بالله وليس بأبى على المعروف بالظاهر ، هذه الأعمال التى قام بها وسلوكه فى الحياة فهى كلها ليس بعمل الإنس ، وقد ذكرنا ذلك من قبل ، على أننا نفهم من كتابات بهاء الدين أن الحاكم أظهر لاهوته سنة ٤٠٠ هـ وكان يتظاهر أنه من الخلفاء الفاطميين لستر ألوهيته لقلة المؤمنين به ، واستمر يظهر لاهوته ثمان سنوات أى حتى سنة ٤٠٧هـ ثم أخفى لاهوته فى السنة التاسعة أى سنة ٤٠٨ هـ لأنها كانت زمان تجارب وأسرار ، ثم عاد فأظهر لاهوته فى بداية السنة العاشرة (أى سنة ٤٠٩ هـ) وأثناء السنة الحادية عشرة (أى سنة ٤١٠ هـ) ثم أخفاه فى السنة الثانية عشرة (أى سنة ٤١١ هـ) ولا يظهر اللاهوت مرة أخرى بعد ذلك إلا يوم الدين ! ! أما لماذا اختار المعبود هذه المقامات التى أظهر فيها ناسوته؟ ولماذا يظهر فى سنوات دون سنوات؟ ثم أخفى ناسوته بحيث لا يظهر إلا يوم الدين ؟ فكل هذه أسئلة لم يجب عنها حمزة أو بهاء الدين إلا بأن المعبود أخفى نفسه لتغلب الكفر بين الناس ، والكفر هو عدم الاعتراف بالمعبود . ونلاحظ أن حمزة يأبى أن يعترف بحلول اللاهوت فى الناسوت أو اتحاد اللاهوت بالناسوت . ولكنه ذهب إلى أن اللاهوت إذا اتخذ صورة ناسوتية فاللاهوت شىء يختلف تمام الاختلاف عن الناسوت ، وأن الصورة التى يراها الناس لا يمكن وصفها بصفة

لاهوتية ، ونرى فى رسالة « الأسرار ومجالس الرحمة للأولياء والأبرار » أن المعبود غاضب على كل خلقه ما عدا الموحدين ! ! ولذلك أغلق باب دعوته فغاب إلى داخل السور الذى يسميه أهل زماننا بسد الإسكندر (سد الصين) ليبقى هناك إلى أن يشاء ثم يظهر يوم الدين ، أما متى سيكون يوم الدين ؟ هذا ما تحدث عنه حمزة مراراً بأنه سيكون قريباً ، وبذلك يكون انتهاء هذا « الدور » ، كما صرح حمزة أن الأدوار السابقة سبعون دوراً وبين كل دور وآخر سبعون أسبوعاً وكل أسبوع سبعون سنة ، وكل سنة ألف سنة من السنين التى يعدها البشر ، وفى كل هذه الأدوار ظهر المعبود فى نفس الصور التى ظهر فيها فى هذا الدور الذى نعيش فيه ، وبذلك يكون عدد ظهور المعبود فى كل الأدوار حوالى سبعمائة مرة ، وهنا نتساءل عن علاقة هذه الآراء بمذهب التناسخ المعروف فى الديانة البوذية ، والديانة الهندوكية ، ففى الديانة البوذية ظهر بوذا على هيئة حيوانات وطيور وشجر وصور إنسية حوالى ألفى مرة ، وفى الديانة الهندوكية ظهر شيفا على صور إنسية عديدة ، كما أن مذهب التناسخ عرف أيضاً عند اليونانيين القدماء، والذين درسوا شيئاً من ديانة قدماء اليونان يعرفون الصور المختلفة التى كانت تظهر فيها آلهتهم ، وتحدث الفلاسفة عن التناسخ وقسموه بين نسخ ومسخ وفسخ ورسخ ، وانتشرت آراء التناسخ بين كثير من الأمم القديمة؛ فمن الشعوب من اعتنقها ومنهم من رفضها ، حتى ظهرت الفرق الإسلامية فنجد بعض الفرق تعتنق آراء التناسخ ، وإذا قرأنا كتب الدروز المقدسة نجد أنها متناقضة فى هذه المسألة ، فكتابات حمزة بن على مؤسس المذهب بها تهكم بمن قال بالتناسخ شأنه فى ذلك شأن دعاة الفاطميين ، مع اعترافه بظهور المعبود فى صور ناسوتية ، وقوله أيضاً بأنه هو نفسه (أى حمزة بن على) ظهر فى صور مختلفة فى الأدوار المختلفة مما يدل على أن مفهوم التناسخ أو الحلول عند الفلاسفة هو غيره عند حمزة ، أما فى كتابات الدعاة الآخرين الذين جاءوا بعد حمزة فمذهب التناسخ واضح أشد الوضوح فنجد مثلا فى رسالة « الأسرار ومجالس الرحمة للأولياء والأبرار » أن الجسد لا يرجع بعد الموت ولكن النفس تحل فى جسد آخر ، فنفس الموحد تنتقل إلى موحد ونفس المشرك إلى مشرك ، ولا تتغير الأنفس ولكنها تغير قمصانها أى أشكالها الخارجية (أى الجسد) وفى الرسالة الموسومة « من دون قائم الزمان والهادى إلى طاعة الرحمن » أن عدد سكان العالم غير قابل للزيادة

ولا النقصان منذ بدء الخليقة ، ويبقى على هذه الحال إلى الأبد ، فلو زاد البشر سنوياً لضاقت بهم الأرض ولو نقصوا ولو قليلا لانقطعوا مع مرور الزمن ، فالأنفس إذن غير قابلة للزيادة أو النقصان بل هى على عددها منذ خلقها البارى وتظهر بظهورات مختلفات الصور على مقدار اكتسابها من خير وشر ، ومن هنا كان اعتقاد الدروز الآن بالتناسخ ، فالذى يموت من البشر تنتقل روحه إلى جسد يولد جديداً ، ويكون عدد الموتى مساوياً لعدد المواليد حتى يظل عدد سكان العالم دون زيادة أو نقصان !!!

٢ ــ حدود الدين

فى العقيدة الفاطمية مبدأ أساسى فى التوحيد والإيمان هو أن توحيد الله لا يكمل إلا بمعرفة مراتب الحدود الروحانية والحدود الجسمانية ، والإيمان بهم وطاعتهم طاعة تامة ، وقد ذكرنا أن الحدود الروحانية عندهم هم العقل (أو القلم أو السابق أو الكاف من قوله تعالى كن) ، ثم النفس (أو اللوح المحفوظ أو التالى أو النون من قوله تعالى كن) ثم الجد فالفتح والخيال ، وهذه الحدود العلوية ممثولات لحدود الدين الجسمانية الذين هم النطقاء . والأوصياء والأئمة والحجج والدعاة ، فهناك فرق بين المثل والممثول مما جعل الشاعر الفاطمى يقول :

اقصد حمى ممثوله دون المثل ذا إبر النحل وهذا كالعسل

وجاء دعاة مذهب الموحدين وأخذوا آراء الفاطميين فى عبادة الحدود ونفس المصطلحات الفاطمية ، ولكنهم حوروا هذه الآراء الفاطمية حتى تتفق مع مبادئهم وآرائهم ، فخالفوا بذلك آراء الفاطميين مخالفة جوهرية ، فأول ما نراه من ذلك أن الحدود الروحانية هم أنفسهم الحدود الجسمانية ، فلا يوجد عنهم مثل وممثول إنما تمشياً مع رأيهم فى التوحيد أن اللاهوت أظهر ناسوته كذلك قالوا فى الحدود إن الحدود العلوية ظهرت فى صور الحدود الجسمانية أى أن الحدود الجسمانية هم أنفسهم الحدود العلوية ، فذهبوا إلى أن المعبود أبدع من نوره العقل الكلى وهو الإرادة وهو علة العلل وهو القلم وهو القضاء وهو ألف الابتداء وألف الانتهاء وهو القائم بأمور الحدود وهو حمزة بن على، ولذلك يقول حمزة فى رسالة سبب الأسباب : « إن المولى

سبحانه اصطفانى وأبدعنى من نوره الشعشعانى من قبل أن يكون مكان ولا إمكان ولا إنس ولا جان ، وهو من قبل أن يخلق آدم العاصى وآدم الناس بسبعين دوراً ، ما منها عصر إلا وقد دعوت العالمين إلى توحيد مولانا العلى الأعلى وإلى عبادته بصور مختلفة ولغات مختلفة » . ويقول فى ميثاق النساء : « و يجب على سائر النساء المؤمنات أن لا يشغلن قلوبهن بغير توحيد مولانا جل ذكره والطاعة لحدود دينه الطاهرين الذين نصبهم للطالبين » ، وناقش حمزة رأى الفاطميين فى حدود الدين فقال فى رسالة كشف الحقائق : « اعلموا معاشر الموحدين رحمكم البار العزيز الجبار بأن جميع المؤمنين والشيوخ المتقدمين تحيروا فى أمر السابق وضده والتالى ونده فبعضهم قالوا بأن السابق هو الغاية والنهاية والعبادة له وحده دون غيره فى كل عصر وزمان ، وهذا نفس الكفر ، وقالت طائفة منهم إن السابق نور البارى لكنه نور لا تدركه الأوهام والخواطر . وهذا نفس الشرك بأن يكون البارى سبحانه لا يدرك وعبده لا يدرك فأين الفرق بين العبد والمعبود ، وهذا محال ونفس الشرك والضلال ، وبعضهم قالوا إن الكلمة فوق السابق لكنها هى هو وهو هى لا فرق بينهما وهذا ما لا يليق فى المعقول بأن يكون الذكر أنثى والأنثى ذكراً ، ثم إنهم كلهم مجمعون على أن السابق أصل السكونة والبرودة ، والتالى أصل الحركة والحرارة فجعلوا عالم العدم الذى لا يرى السابق ، وعالم الوجود التالى ، وهذا نقض لقولهم إن السابق هو المعبود فكيف يكون ذلك جائزاً وقد جعلوا التالى العالم الأكبر . . ونقول بمشيئة البارى سبحانه إنه أظهر من نوره الشعشعانى صورة كاملة صافية وهى الإرادة وهو هيولى كل شىء وبه تكوينهم ، وسمى تلك الصورة عقلا ، فكان العقل كاملا بالنور والقوة تاماً بالفعل والصورة ، وقد اجتمعت فيه الطبائع الخمسة ، وأحصى فيه جميع ما هو كائن إلى ما لا نهاية له ، وجعله إمام الأئمة موجوداً فى كل عصر وزمان وهو السابق الحقيقى ، وإنما سمى سابقاً لأن خلقته وصورته سبقت جميع الحدود إلى توحيد البارى سبحانه ، وهو مدروك محسوس يأكل و يشرب لا كما قالوا إنه لا يدرك بوهم ولا بخاطر ، وكان أول ما أبدعه العلى الأعلى سبحانه سماه علة العلل فكان عملا كاملا بالقوة تاماً بالفعل حليًا بالسكون قادراً بالحركة أصل نقطة البيكار هيولى الطبائع الخمسة لطيف شفاف مدبر لجميع العالمين والعاليين وجعل فخر العالمين وعزهم به فى الدين والدنيا ، وجعل منازلهم على مقدار ما يقتبسون من نوره و يستقون من بحره العذب الزلال » .

هكذا أظهر حمزة الحدود فى صور تختلف عما عهده أصحاب العقيدة الفاطمية ، فالحدود الروحانية عند الفاطميين عقول محضة وهى ممثولات بينما الحدود الجسمانية الذين هم النطقاء والأوصياء والأئمة والدعاة هم بشر وهم مثل للممثولات ، ولكن حمزة أبى إلا أن يجعل الحدود العلوية هم نفسهم الحدود الجسمانية وأن الجميع بشر يراهم الناس ، فحمزة بن على هو نفسه العقل الكلى وهو الإرادة وهو علة العلل وهو القلم وهو القضاء إلى غير ذلك من الألقاب التى منحها لنفسه ، وهذا العقل الكلى ليس هو السابق إنما السابق مرتبة أقل بكثير من مرتبة العقل الكلى فإنه فى المرتبة الرابعة من مراتب الحدود عند حمزة ، كذلك نقول عن التالى ، وهى النفس الكلية عند الفاطميين فقد جعل حمزة مرتبة التالى فى المرتبة الخامسة ، وجعل الفاطميون « الكلمة » مكونة من السابق والتالى بينما جعل حمزة الكلمة هى المرتبة الثالثة من مراتب الحدود .

واستخدم حمزة حديث العقل الذى رواه الفاطميون وجعل لهذا الحديث تأويلا خاصًا يتفق مع ما كان يرمى إليه فقد ورد فى رسالة كشف الحقائق أن المولى بعد أن أبدع العقل «قال مولانا العلى الأعلى لعلة الإبداع الذى هو العقل الكلى "أقبل" يعنى أقبل على عبادتى وتوحيدى ، فأقبل إليهما بالسمع والطاعة ، فقال له "أدبر" أى تول عن جميع من يشرك بى غيرى و يعبد سواى ، فأدبر عنهما ، فقال مولانا العلى الأعلى سبحانه : وعزتى وجلالى وارتفاعى فى أعلى علو مكانى لادخل أحد جنتى — أى ميثاقى — إلا بك و بمحبتك ولا احترق بنارى — يعنى ظاهر الشرائع الناموسية التى هى الحرارة اليابسة — أحد إلا بتخلفهم عنك ونفاقهم عليك — من أطاعك فقد أطاعنى ، ومن عصاك فقد عصانى ، بك تبلغ المنازل العالية ، وقد جعلتك الوسيلة إلى رحمتى لجميع عبيدى وأهل طاعتى » ؛ فلما سمع العقل ذلك من البار العلى سبحانه نظر إلى شخصه فرآه بلانظير يشاكله ، ولا ضد يقاومه ، ولا ند يعادله ، فأعجبته نفسه وظن أنه لا يحتاج إلى أحد أبداً ولا يقوم له ضد يعانده ، وأن يقوم فى جميع الأدوار وحده بلا ضد ، فأبدع مولانا من طاعته معصية ، ومن نوره ظلمة ، ومن تواضعه استكباراً ومن حلمه جهلا ، فصارت أربع طبائع مذمومة بإزاء الأربع طبائع المحمودة التى هى العقل وطبائعه وهى حرارة العقل وقوة

النور وسكون التواضع و برودة الحلم وليونة الهيولى الداخل فى الطبائع الخارج منهم ، فقام بإزاء كل آلة منها دينية آلة ضدية معاندة للعقل عاصية لأمره ونهيه يرى روحه مثله وشكله ، وإن إبداعه منه بغير واسطة بينهما ، فعلم العقل أنها محنة ابتلاه بها مبدعه العلى الأعلى حيث رأى روحه بالكمال والقدرة فأقر عند ذلك بالعجز والضعف وتضرع إلى البارى فى معونته على الضد ، وسأله أن يجعل له معيناً على الضد ، فأبدع العلى نفس الحدود وجعله ذا مصة ، وجعل له نصف الحركة والفعل ، فصار بمنزلة الأنثى بينما العقل بمنزلة الذكر ، وجميع الحدود أولادهما ، وانبعثت الكلمة من العقل كما انبعث السابق من النفس ، وانبعث التالى من السابق ، ومن نور التالى ظهرت الأرض وما عليها والأفلاك والبروج الاثنا عشر أى بقية حدود الدين .

وهكذا أصبح للدروز حدود دينية نستطيع ترتيبهم حسب ما ورد فى رسالة معرفة الإمام إلى :

أولا : العقل الكلى وهو ذو معة علة العلل والأمر قائم الزمان وهو الإرادة وهو الإمام الأعظم حمزة بن على بن أحمد هادى المستجيبين .

ثانياً : النفس وهو ذو مصة وهو المشيئة . إدريس زمانه وأخنوخ أوانه هرمس الهرامسة ، الشيخ المجتبى ، الحجة الصفية الرضية وهو أبو إبراهيم إسماعيل بن محمد ابن حامد التميمى صهر حمزة بن على .

ثالثاً : الكلمة وهو سفير القدرة الشيخ الرضى فخر الموحدين و بشير المؤمنين وعماد المستجيبين أبو عبد الله محمد بن وهب القرشى .

رابعاً : الجناح الأيمن (أى السابق) ، نظام المستجيبين وعز الموحدين أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السامرى .

خامساً : الجناح الأيسر (أى التالى) ، الشيخ المقتنى لسان المؤمنين وسند الموحدين ومعدن العلوم الذى له يقوم بالأفعال الصحيحة المعلومة بينما تكون قوة حد السابق مستورة مكتومة ، بهاء الدين أبو الحسن على بن أحمد السموقى المعروف بالضيف .

هؤلاء هم الحدود النورانيون النفسيون الروحانيون الجرمانيون الجسمانيون ، والحدود

الأربعة الذين يتلون العقل الكلى هم الأربعة الحرم ، وهم أيضاً الحجج الأربعة ، وهؤلاء الحدود يظهرون فى كل عصر فى صور مختلفة وأسماء متباينة فقد يحتجبون ويتخذون الستر تقية عندما تشتد الظلمة أى عدم اعتقاد توحيد الحاكم المعبود ؛ فمثلا عندما ظهر المعبود فى صورة أبى زكريا وظهر حمزة بن على فى صورة قارون ، ظهر أبو إسماعيل التميمى النفس الكلية فى صورة أبى سعيد الملطى وهكذا ، على أن التالى أى بهاء الدين الضيف له ثلاثة حدود هم :

١ — الجد وهو أيوب بن على

٢ — الفتح وهو رفاعة بن عبد الوارث

٣ — الخيال وهو محسن بن على

وهؤلاء الثلاثة يتلقون أوامرهم من بهاء الدين وليس لهم المكانة التى للحدود الحرم ، أو المرتبة التى خصصت لهم فى العقيدة الفاطمية ، ثم جعلوا حدود الإمامة والتوحيد سبعين درجة على النحو التالى :

١ — النفس الكلية وله اثنا عشر حجة فى الجزائر وسبعة دعاة للأقاليم .

٢ — الكلمة وله اثنا عشر حجة وسبعة دعاة .

٣ — السابق وله اثنا عشر حجة فقط .

٤ — التالى وله اثنا عشر حجة فقط .

٥ — الداعى المطلق وله مأذون واحد ومكالبان (أو مكاسران) .

وعن هؤلاء الحدود السبعين تفرعت الحدود جميعاً بين دعاة ومأذونين ومكاسرين ، وجميع الحدود الحرم منهم وغير الحرم كلهم من قبل العقل الكلى يسقط منهم من يريد ويرفع درجة من يشاء ، والحدود السبعون هم الذين ذكروا فى القرآن الكريم على ما أوله حمزة بن على « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » أى أن ميثاق قائم الزمان حمزة بن على الذى هو سلسلة بعضها فى بعض وهم سبعون رجلا فى دعوة التوحيد فمثل حمزة حدوده بالسلسلة لأن دعوتهم منتظمة بعضها ببعض .

ودرجة المكاسر أو المكالب هى أقل درجة من درجات الدعوة الدرزية كما هو الحال فى الدعوة الفاطمية . تعلوها درجة المأذون ثم الداعى ثم الحجة ، فترتيب الدعاة

إذن هو نفس ترتيب دعاة الدعوة الفاطمية ، وقالوا فى تأويل « بسم الله الرحمن الرحيم » إن « بسم الله » سبعة أحرف دليل على سبعة دعاة أصحاب الأقاليم السبعة ، و « الرحمن الرحيم » اثنا عشر حرفاً دليل على اثنى عشر دعاة الجزائر ، وهو نفس تأويل الفاطميين تقريباً .

ولم ينس حمزة أن يخص نفسه بعدة ألقاب وصفات لم يسبغها نبى من الأنبياء على نفسه فهو الآية الكبرى وآية التوحيد وآية الكشف ، والعقل الكلى والإرادة وعلة العلل وذومعة ، وهو والأربعة الحرم والجد والفتح والخيال هم الثمانية الذين يحملون العرش ، ولكن حمزة جمع فى نفسه علومهم جميعاً لأن العرش هو علم توحيد المعبود وهو علم لا يحمله فى الحقيقة إلا الملك المقرب إلى المعبود الذى يكون معه دائماً أى ذومعة وهوحمزة ، وقد ظهر حمزة فى الأدوار الكبرى والأدوار الصغرى بأسماء مختلفة فهو شطنيل فى دور آدم ، وفيثاغورس فى دور نوح وأليعازر فى دور عيسى وأنه أى حمزة هو المسيح الحقيقى الحى الأبدى ، وسلمان الفارسى فى دور محمد وهكذا ، ووصف نفسه فى رسالة التحذير والتنبيه بأنه أصل المبدعات وأنه سواط المولى المعبود والعارف بأمره وأنه الطور والكتاب المسطور والبيت المعمور وأنه صاحب البعث والنشور والنافخ فى الصور وأنه ناسخ الشرائع ومهلك العالمين والنار الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، وأنه هو الذى أملى القرآن على محمد إلى غير ذلك من النعوت التى أسبغها على نفسه وزخرت رسائله بها دون أن يفطن حمزة للتناقض الشديد فى أقواله عن نفسه ، وقد التزمت فى حديثى عن العقائد الدرزية أن لا أناقشها ولكن هناك مسائل تاريخية وردت فى رسائله تحتاج إلى تحقيق فمثلا فى حديث حمزة عن النطقاء والأسس وهم من حدود الدين عند الفاطميين ، فالناطق عند الفاطميين هو النبى والأساس هو وصى النبى ومستودع علمه وصاحب التأويل ، وفى دور آدم الحالى ظهر النطقاء والأسس وهم آدم وأساسه شيث ، ثم نوح وأساسه سام ثم إبراهيم وأساسه إسماعيل ، ثم موسى وأساسه هرون ثم عيسى وأساسه شمعون الصفا ثم محمد وأساسه على بن أبى طالب وهؤلاء جميعاً حدود جسمانية مثلا للحدود العلوية ، وقد ذكرنا أن للفاطميين تأويلات خاصة لما ورد فى القرآن الكريم عن الأنبياء ، أما فى رسائل حمزة فنجد حديثاً طريفاً جداً عن النطقاء والأسس وعن تأويل قصص

الأنبياء وبعض هذه التأويلات تتفق تمام الاتفاق مع ما ورد فى كتب الحقائق الفاطمية وبعضها الآخر يختلف تمام الاختلاف ، ولا أدرى من أين أتى بها حمزة ولذلك نلفت نظر المؤرخين إليها لما فيها من طرافة ، فقد ورد فى رسالة السيرة المستقيمة ما ملخصه أنه فى ابتداء دورنا الحالى وجد ثلاثة رجال كل واحد منهم اسمه آدم كانوا يعيشون فى وقت واحد وفى بلد واحد وهم آدم الصفا ، وآدم العاصى وآدم الناسى ، وجميعهم ولدوا من ذكر وأنثى ، أما آدم الصفا فهو آدم الصفا الكلى ذومعة (أى حمزة بن على) وكان أحد حدود دعوة التوحيد فى الدور الذى كان قبل دورنا هذا ، وقد ولد آدم الصفا الكلى فى بلدة أدمينية ببلاد الهند وكان اسمه شطنيل واسم أبيه دانيل وكان يحترف الطب ثم خرج شطنيل من بلاده إلى مدينة صرنة باليمن (ومعناها بالعربية كما يقول حمزة المعجزة) فرأى شطنيل أن أهل مدينة صرنة مشركون فدعاهم إلى توحيد المعبود (الحاكم بأمر الله) فقبل فريق منهم دعوته وأبى فريق آخر ، فأمر من أطاعه أن يبينوا عن المشركين ولذلك أطلق عليهم اسم (البن) وقام شطنيل بدعوة التوحيد فأمر المولى الحدود والدعاة بالسجود له أى بطاعته فاستجابوا كلهم إلا الحارث بن ترماح الذى كان من الدعاة وانتقل من مسقط رأسه أصبهان وسكن صرنة أيضاً ، وكان فى الدعوة أقدم من شطنيل وأرسخ قدماً فى علم الحقيقة ، فلما أبى الحارث طاعة شطنيل أخرج من الدعوة وأسقط من جملة الحدود ، وأصبح شطنيل هو إمام الدعوة فى صرنة وأطلق حججه ودعاته ولقب بآدم أى سيد الحدود و إمامهم ، أما الحارث فلقب بإبليس وأصبح ضد شطنيل وإمام المشركين (أى الجن) فكان إذا قابل أحد البن واحداً من إخوانه الموحدين يقول له اهجر إبليس وحزبه ولذلك سميت صرنة بهجر ! ! ! لأن أهلها هجروا إبليس وصحبه ، وكان التجار يأتون إلى صرنة من مدينة الأحساء ، فتصادف أن قدم مع التجار رجل من علماء الأحساء اسمه « صرصر » فناقشه أحد الدعاة وما زال به حتى أخذ عليه العهد وقدمه إلى شطنيل ، الذى أطلقه داعياً فى الأحساء وأعمالها ، فخرج صرصر إليها يدعو الناس حتى استجاب له خلق كثير ، ثم أوصاهم صرصر أنهم إذا دخلوا مدينة هجر (أى صرنة) فعليهم أن يعبسوا وجوههم و يقرمطوا أنوفهم إمعاناً فى كراهية الجن وزعيمهم الحارث بن ترماح (إبليس) وأن لا يخاطبوا أهل

المدينة بشىء من العلم إلا من كان فى مجلس شطنيل ، ولذلك أطلق عليهم اسم القرامطة ! ! ! ومن هنا كان قرامطة البحرين من دعاة توحيد الحاكم ! ! ! ولقب الحاكم أبو طاهر الجنابى وأبو سعيد وغيرهما من زعماء القرامطة بالسادة لأنهم قاموا بحركاتهم المعروفة فى التاريخ ، ولما عاد القرامطة إلى الاعتراف بالعباسيين وشنوا الحرب على الفاطميين وقعوا فى الغى والكفر وسيعود أهل الأحساء وهجر وبلاد فارس إلى دعوة توحيد الحاكم ! ! !

واتخذ شطنيل (آدم الصفا) أول حجة له واسمه أخنوخ من مدينة البصرة ، كما اتخذ حجة آخر اسمه شرخ من بلد يقال له سرمنا ، وشرخ هذا هو الذى يعرف بالأساس شيث وآدم الناسى وهو المذكور فى القرآن بأنه « زوجة آدم » ثم عين باقى الحدود لشريعته وكانت هذه الشريعة توحيدية لا تكاليف فيها ، ولذلك جاءت شريعة توحيد الحاكم وعبادته التى وضعها حمزة توحيدية لا تكاليف فيها تأويلا للآية القرآنية « كما بدأنا أول خلق نعيده » . أما آدم الذى ذكر فى القرآن الكريم أنه عصى ربه فهو أخنوخ حجة آدم ، فقد ادعى هو وشرخ منزلة شطنيل بإغواء الشيطان – والشيطان هو هبل الذى كان معبود العرب فى الجاهلية – ثم عفا المولى عنهما بعد التوبة والاستغفار .

وهنا نقف لنتساءل عن اسم شطنيل هذا ، وهل هناك علاقة بين هذا الاسم واسم « شانطى » الذى يطلقه الصينيون على القديسين المسيحيين ؟ ربما سمع حمزة بهذه الكلمة الصينية من أحد تجار الصين أو أحد الذين سافروا إلى الصين ، فاستغلها بعد أن حرفها إلى شطنيل . ثم مدينة صرنة التى معناها بالعربية المعجزة ثم عرفت بهجر عند القرامطة فلم يذكر أحد من العلماء أن هجر باليمن ثم سبب تسمية القرامطة بهذا الاسم يدعونا إلى التفكير ، كل هذه مسائل كان حمزة هو الوحيد بين الكتاب فى ذكرها على هذا النحو ، ولا شك أنه أدرى بكل شىء لأنه علة العلل ! ! !

ثم يتحدث حمزة عن الأديان السماوية فيقول إن نية الناس تغيرت ومالوا إلى الشرك بعد دور شطنيل فأظهر المولى لهم نوح بن لمك بشريعة جديدة وأقام الحدود ونصب الدعاة والحجج وكان أساسه سام فلم تزل شريعته إلى أن ظهر إبراهيم بن آزر

فغير شريعة نوح وأقام إسماعيل أساساً لدعوته ولم تزل دعوته إلى أن ظهر موسى ابن عمران فأتى بشريعة تخالف السابقة ونصب هرون أساسه إلى أن ظهر عيسى ابن يوسف النجار (هكذا يقول حمزة عن المسيح عليه السلام) وأظهر دعوته ونصب شمعون الصفا أساسه وبعث حوارييه أى (حججه ودعاته) إلى عبادة العدم ! ! وتوحيد من لا يعرف ! ! ولكن الناس لم يفهموا كلامه ولم تزل شريعته قائمة إلى أن ظهر محمد بن عبد الله ونسخ جميع الشرائع كافة بشريعته ونصب أساسه على ابن عبد مناف (هكذا) واتخذ اثنى عشر حجة مثل غيره من النطقاء السابقين منهم أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وعبيدالله ابن الجراح ومعاوية بن أبى سفيان ، ولم تزل شريعة محمد بن عبد الله تتناسخ فى أيدى أئمته إلى أن انقضى دوره ! ! وظهر ناطق غيره وهو محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق الذى ختم الشرائع وأتمها . وختم دور محمد بن إسماعيل بعبيد الله المهدى إذ جاء المعبود نفسه فى صورة ناسوتية هى صورة القائم بأمر الله ، وأصحاب الأديان هؤلاء كانوا يسهلون سبل توحيد المعبود ، وكان حمزة أو شطنيل أو آدم الصفا يظهر بين الناس فى كل دور من تلك الأدوار الدينية وكذلك الأربعة الحرم ، ولم يعرفهم الناس لأن المولى حجبهم عن أعين الناس لمخالفتهم إياه ، فمثلا كان حمزة فى صورة أبى طالب عم الرسول ، ثم فى صورة سلمان الفارسى وإلى آخره .

على أننا نلاحظ أن تأثير العقيدة المسيحية واضحة فى كتابات بهاء الدين بينما نجد أثر العقيدة الإسلامية أشد وضوحاً فى كتابات حمزة ، ففى رسالة القسطنطينية التى بعث بها بهاء الدين إلى قسطنطين إمبراطور بيزنطة استشهد بهاء الدين بما ورد فى الإصحاح الثانى من إنجيل يوحنا (العدد الخامس) ، (قالت أمه للخدام مهما قال لكم فافعلوه) وما ورد فى نفس الإصحاح (من عدد ١٩ إلى ٢٢) . . «وقال لهم يسوع : انقضوا هذا الهيكل وفى ثلاثة أيام أقيمه فقال اليهود فى ست وأربعين سنة بنى هذا الهيكل أفأنت فى ثلاثة أيام تقيمه ، وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هذا » وفسر بهاء الدين ما ورد فى الإصحاح بأن الثلاثة أيام هى ثلاث مرات الأولى ظهور المسيح لتهيئة الناس لتعليم

مذهب التوحيد والثانية مجيء الفارقليط وهو روح النفس والثالثة زمان ظهور المهدى الذى يعلم الناس تفسير الكتب الدينية المختلفة تفسيراً رمزيـًا ليتدرجوا إلى علم التوحيد وبعد هذه الأيام الثلاثة يأتى اليوم الذى يظهر فيه المسيح أى حمزة، وقال بهاء الدين إن اليوم الرابع هو تمام اليوم الأول كما يتضح من الإصحاح السابع من إنجيل يوحنا عندما طلب إخوة المسيح إليه إظهار أعماله فقال لهم إن ساعتى لم تأت بعد .... كما استشهد بهاء الدين أيضاً بقول المسيح إنه أتى من السماء ليتمم إرادة الذى بعثه . . إلخ على أن المسيح هو حمزة . وفى « الرسالة المسيحية وأم القلائد النسكية » وهى من رسائل بهاء الدين — أن كل ما ورد فى الإنجيل من الاضطهاد والتعذيب وغير ذلك إنما يراد باضطهاد حمزة لأعداء مذهبه وأن حمزة هو الذى علم الإنجيل والإنجيل مبنى على حكمة إلهية رمزية معناها الدين التوحيدى ثم نراه يذهب إلى أن جميع الألقاب التى لقب بها المسيح فى الإنجيل هى ألقاب حمزة فهو روح القدس وروح الحق الذى ظهر لغفران الخطايا وابن الله وأنه هو الذى أرسل متى ومرقس ولوقا ويوحنا لواحقه لتعليم الناس الإنجيل وأنه الغريب لأنه غريب عن الديار التى ظهر فيها ولأنه غريب الأعمال والأفعال، وأنه المسيح الحقيقى أما المسيح الذى صلبه اليهود فهو ابن يوسف النجار الذى كان مخالفاً للمسيح الحقيقى، وهكذا نرى أثر المسيحية فى كتابات بهاء الدين وهو الشىء الذى لا نجده فى كتابات حمزة أو التميمى، ومن الغريب أن بهاء الدين لا يعترف بالقديسين المسيحيين، بالرغم من أنه خاطبهم بقوله: «السلام على أهل التوحيد والدين والمقتفين الآثار المطهرة، الحواريين العارفين بمذهب الأمناء».

ومما تقدم نرى أن آراء علماء دعوة الدروز عن النطقاء والأسس تتفق اتفاقاً يكاد يكون تامـًا مع ما قاله علماء الدعوة الفاطمية لولا بعض اختلافات فلم يشأ دعاة الفاطميين أن يصرحوا بما صرح به دعاة مذهب تأليه الحاكم بالرغم من أن دعاة الفاطميين كانوا على علم غزير حقـًا، ومقدرة فائقة فى إلباس آرائهم ثوب الحقيقة، بخلاف دعاة مذهب الدروز الذين كانوا يحتالون بشتى الطرق لإثبات آرائهم والدفاع عنها ولو ناقض الواحد منهم نفسه أو غالط فى التاريخ من ذلك الحديث عن دور محمد بن إسماعيل فقد ورد فى كتب الدروز ما نصه « وكان الثلاثة الذين رابعهم سعيد بن أحمد المهدى فى دور محمد بن إسماعيل وثلاثة خلفاء من قبلهم

فصاروا سبعة تمام دور محمد بن إسماعيل وكان آخرهم المهدى » هنا يتحدث حمزة عن أئمة الفاطميين فى دور الستر، وهو الحديث الذى تحاشاه علماء الدعوة الفاطمية . وإذا تحدث عنه أحدهم فهو يتخبط فى حديثه بحيث قل أن نجد اتفاقاً بين علماء هذه الدعوة حول هذا الموضوع مع أن أكثرهم يتفقون على أن أئمة دور الستر هم عبد الله بن محمد بن إسماعيل وأحمد بن عبد الله فالحسين بن أحمد ثم ظهر عبيد الله المهدى، فمن هم إذن الخلفاء الثلاثة الذين كانوا قبل هؤلاء الأربعة ؟ وكيف نعدهم فى دور محمد بن إسماعيل ؟ هذا ما لم أستطع فهمه ولو كان باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً فى العقيدة الدرزية لوجد من علمائهم من يصلحون هذه الأخطاء التاريخية، ويخيل إلىّ أن حمزة أراد أن يتمم أسبوع دور محمد بن إسماعيل ولكنه لم يوفق فى حديثه .

شريعة الدروز

كان دعاة مذهب الدروز يعيشون فى وسط إسلامى خالص يحافظ على أداء الفرائض الدينية الإسلامية محافظة تامة، حتى إن الدعوة الفاطمية نفسها التى أخذ منها دعاة الدروز عقيدتهم، كانت دعوة تقوم على العلم والعمل أى على التأويل الباطن وعلى العبادة الظاهرة التى تدعو إلى إقامة الفرائض الدينية الإسلامية، وكان الفاطميون منذ دخلوا مصر يكثرون من إنشاء المساجد ويذهبون إلى الجوامع للصلاة، ويهتمون اهتماماً كبيراً بالظهور بهذا المظهر الدينى حتى يؤلفوا قلوب الناس ويتحببوا إليهم، والحاكم نفسه أتم بناء هذا الجامع الكبير الذى بدأه العزيز، فكان جامع الحاكم من أكبر وأفخم جوامع الفاطميين وآثار هذا الجامع لا تزال ماثلة فى القاهرة المعزية، بمئذنته وبالمبخرتين الفخمتين على عضادتى بابه، كل هذا يدل على أن الفاطميين كانوا يقومون بالعبادة العملية بجانب العبادة العلمية، وكان القرآن الكريم يرتل فى كل مكان، وكان للحضرة قراء دائمون يتناوبون تلاوة القرآن الكريم فى كل ساعات الليل والنهار، كان دعاة الدروز قبل بدء ظهور دعوتهم وبعد ظهورها محاطين بهذا الجو الدينى الإسلامى فكان لا بد لهم أن يتأثروا بذلك كله فى

وضع مذهبهم الجديد ، وأول ما بدأه الدعاة بعد إعلان توحيد الحاكم هو نقض الشريعة القائمة المنتشرة حولهم والتى كان يدين بها أكثر أفراد المجتمع إذ ذاك حتى يتسنى لهم أن يأتوا بشريعة جديدة تخالف ما كان عليه الناس ، ونجد فى رسالة « النقض الخفى » رأيهم فى نقض الشريعة الإسلامية فبدءوا بالقول بتلاشى الظاهر وإقامة الباطن المحض أى بإبطال كل فرائض الدين الظاهرة والعبادة العملية ، وإلغاء كل أركان العبادة ، وأن يقوم الباطن فقط ، على أن التأويل الباطن الذى قالوا به هو نفس ما قاله علماء الدعوة الفاطمية فى التأويل الباطن للفرائض ، كما اتخذوا من أفعال الحاكم بأمر الله وتصرفاته ما يؤيد رأيهم فى نقض الفرائض — وقد ذكرنا ذلك من قبل — ولكن دعاة المذهب الجديد أرادوا أن يطعنوا التأويل الباطن الفاطمى فقالوا مثلا إن « الفحشاء والمنكر » إتباع الشريعتين الشريعة الظاهرة والشريعة الباطنة، وأن التأويل الباطن للزكاة مثلا عند الفاطميين هى ولاية على بن أبى طالب والأئمة من ذريته والتبرؤ من الأضداد فقال دعاة المذهب الجديد إن الحاكم منع سب أضداد الأئمة فأظهر بذلك بطلان الزكاة الباطنية ، وأن الزكاة الحقيقية هى توحيد المولى وترك ما كان عليه الناس قديماً . وهكذا حاولوا نقض أركان الدين باتباع تأويلات خاصة ولكنها أقرب إلى التأويلات الباطنية الفاطمية ، واتخذوا لهم فرائض أطلقوا عليها الفرائض التوحيدية وهى معرفة البارى وتنزيهه عن جميع الصفات والأسماء ثم معرفة الإمام قائم الزمان وهو حمزة بن على بن أحمد وتمييزه عن سائر الحدود ووجوب طاعته طاعة تامة ثم معرفة الحدود بأسمائهم وألقابهم ومراتبهم ووجوب طاعتهم ، فإذا اعترف الإنسان بهذه الفرائض التوحيدية الثلاثة أصبح موحداً ، وليس عليه أن يقوم بتكاليف أى فريضة من الفرائض ، ولكن على الموحد أن يعترف أيضاً ببعض الواجبات التى فرضها المذهب ، مثل معرفة المقامات الربانية وهى التى ظهر فيها المعبود فى صور ناسوتية ، ومعرفة الصورة التى ظهر فيها كل مرة ومعرفة اسم الحاكم ، والإقرار بالنطق أى بالمجالس والسجلات التى تحتويها الكتب المقدسة ثم معرفة الفعل أى المعجزات التى قام بها المعبود فى ناسوته .

وقالوا إن المولى قد أسقط عن الموحدين سبع دعائم تكليفية ناموسية وفرض عليهم سبع خصال توحيدية وهى :

أولا : أولها وأعظمها : سدق اللسان ، ونلاحظ دائما أن الدروز لا ينطقون كلمة الصدق بالصاد ، إنما ينطقون ويكتبون الكلمة ومشتقاتها بالسين ، والسبب فى ذلك هو حساب الجمل ، وما يتفق فى ذلك مع العقيدة التى نادوا بها ، فالسين تساوى ستين ، الدال تساوى أربعة ، القاف مائة فيكون المجموع مائة وأربعة وستين هم عدد حدود الموحدين ذلك أن حد الإمامة تسعة وتسعون (أى الأسماء الحسنى) أى أن للإمام تسعة وتسعين داعياً ، ولكل من الجناح الأيمن والجناح الأيسر ثلاثون داعياً مجموعهم ستون داعياً ، يضاف إلى ذلك كله أربعة حدود علوية هم ذو مصة والكلمة والجناح الأيمن والجناح الأيسر فالمجموع الكلى مائة وثلاثة وستون حداً دينياً يبقى بعد ذلك حد هو الدليل على التوحيد وهو حمزة بن على بن أحمد . ومن هنا نطقوا كلمة صدق ومشتقاتها وكتبوها بالسين حتى تتفق مع حروف الجمل على هذا النحو .

ثانياً : حفظ الإخوان .

ثالثاً : ترك ما كان عليه الموحدون وما اعتقدوه من عبادة العدم والبهتان .

رابعاً : البراءة من الأبالسة والطغيان ، ويقصد بذلك البراءة من الأنبياء السابقين ومن كل الأديان والشرائع .

خامساً : التوحيد للمولى فى كل عصر وزمان ودهر وأوان .

سادساً : الرضا بفعله كيفما كان .

سابعاً : التسليم لأمره فى السر والحدثان وأنه يجب أن يعلم كل واحد أن المولى يراه حيث لا يرى .

هذه هى الخصال التوحيدية التى يجب على الموحد اعتقادها والعمل بها ، والناظر إلى هذه الخصال يجدها كلها فى كتاب « الهمة فى آداب أتباع الأئمة » للقاضى النعمان بن محمد بن حيون المغربى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ وقد نشرنا هذا الكتاب من قبل فى سلسلة مخطوطات الفاطميين فليرجع إليه كل باحث يريد معرفة علاقة آراء الدروز بالعقيدة الفاطمية مع ملاحظة أن القاضى النعمان لم يذكر شيئاً بالطبع عن توحيد الحاكم فى كل عصر وزمان إنما قال بطاعة إمام العصر وقائم الزمان .

ومعنى هذا أن شريعة الدروز تتلخص فى إسقاط الفرائض الدينية التكليفية وعدم إقامة الفرائض الدينية الإسلامية ، والاعتراف بالخصال التوحيدية ، فمن اعترف بها فهو من الموحدين ، وهم فى ذلك يتفقون إلى حد كبير مع المبادئ التى نادى بها الحسن الثانى بن محمد زعيم الإسماعيلية الشرقية فى آلموت سنة ٥٥٨ هـ الذى طلب من أتباعه طرح جميع التكاليف الدينية، ولا يزال الإسماعيلية الأغاخانية على هذه العقيدة إلى اليوم، غير أن الدروز يصومون فى أيام خاصة وهى التسعة الأيام الأولى من شهر ذى الحجة، وصيامهم هو نفس التقليد الإسلامى فى الصيام أى الامتناع عن الأكل والشرب والقيام بأى عمل يبطل صيام المسلم ، ويحتفلون بعيد الأضحى الذى هو عيدهم الأكبر ، ومنهم المتعبدون الذين يجاهدون النفس فتراهم يصومون عدة أشهر متوالية على نحو ما يقوم به بعض « السادو » فى الهند ، فالسادو يجاهد نفسه جهاداً عنيفاً بأن يأتى من الأعمال ما فيه تعذيب الجسد فى سبيل تطهير النفس ونقائها ، وقد شاهدت فى معبد بمدينة بومباى بالهند «سادو» يقف على رجله اليسرى وقد رفع رجله اليمنى وقيل لى إنه ظل هكذا مدة أربعة أشهر دون أن يستريح فهو ينام ويأكل وهو على هذه المثابة . ومن الدروز من أقلع عن الزواج إمعاناً فى تصوفه ومنهم من لا يأكل لحماً طوال حياته على نحو ما يفعله براهمة الهند ، بل هؤلاء لا يذوقون شيئاً من بيت أحد من غير العقال مثل البراهمة تماماً .

وفى كتب الدروز المقدسة وصايا أخرى غير الوصايا السبع التى ذكرناها من قبل ، وقد فرض على الموحدين القيام بها أسوة بالوصايا السبع ، ففى ميثاق النساء مثلا يقول حمزة إنه ينبغى على الرجال الموحدين وعلى النساء الموحدات أن يكونوا منزهين عن كل عيب ودنس وإثم ، وأن يبتعدوا عن مخالطة غير المؤمنين ، وأن تكون طهارة أفعالهم وأقوالهم معلومة للجميع ، وأن يأمروا بالمعروف ويعملوا الخير ، وفى رسالة الأسرار ، يحذرهم بهاء الدين من أن يكون بينهم قتلة أو لصوص أو فاسقون أو ظالمون ، وفى رسالة شرط الإمام صاحب الكشف أنه من الفروض الدينية أنه عندما يتزوج موحد موحدة يجب عليه أن يجعلها مساوية له فى كل شىء وأن يقسم بينه وبينها كل دخله ، وإذا اضطر إلى الطلاق فينبغى أن يعرف من منهما المقصر فى معاملة الآخر ، فإذا كانت الزوجة هى التى ترغب فى الطلاق فيكون لزوجها

نصف ما تملكه بعد أن يشهد عدول أنها هى المقصرة فى حق زوجها وأنه كان يعاملها معاملة حسنة ، وإذا شهد الشهود بأنه كان يهينها ولا يعاملها بالمساواة فلها الحق أن تأخذ معها كل ما هو لها دون أن يسمح له بأن يأخذ منها شيئاً . وإذا شاء الرجل أن يطلق زوجته من تلقاء نفسه دون أن تكون قد أذنبت يكون لها نصف ما يملكه من بيته وأثاثه وأمواله ودوابه . وهكذا نجد فى الكتب المقدسة أشباه هذه التشريعات التى وضعها حمزة والحدود بعده ، على أن أكثر هذه الوصايا التى فرضت على الموحدين إنما أخذت من القرآن الكريم ، وأكثر الاستشهادات التى أتى بها حمزة إنما هى آيات من القرآن الكريم ، بل نقرأ فى رسالة الغاية والنصيحة قول حمزة « كان يجب عليكم أن تنظروا ما جاء فى القرآن وتدبروا معانى حقائقه » ، وفى رسالة السيرة المستقيمة يقول حمزة : وقد بين القرآن تكذيبهم بقوله « ليس كمثله شىء» ، فتأويل آيات القرآن الكريم أول شىء يلاحظه قارئ كتب الدروز المقدسة.

يوم القيامة والثواب والعقاب

غاب المعبود (الحاكم بأمر الله) سنة ٤١١ هـ ، ولن يعود إلى الظهور فى الصور الناسوتية إلا يوم القيامة ، وهو اليوم الذى يظهر فيه مذهب عقيدة التوحيد على كل المذاهب والأديان ، ويضطر المخالفون لعقيدة التوحيد أن يتحولوا عن دينهم بحد السيف ، أما متى سيكون هذا اليوم ؟ فرسائل الدروز تقول إن ذلك أمر مجهول ولكن سيكون ذلك فى شهر جمادى أو فى شهر رجب ، وعلامة قرب هذا اليوم هو عندما يرى الملوك يملكون حسب مآربهم وأهوائهم الشخصية ولا يعدلون بين الرعية . ويتسلط المسيحيون واليهود على البلاد ، ويستسلم الناس إلى الآثام والفساد والآراء الفاسدة ، ويتملك شخص من ذرية الإمامة يعمل ضد شعبه وأمته ودينه ويضع نفسه تحت سلطان المخادعين ، ثم ظهور ملك آخر فى مصر يحارب المصريين ويحاربونه ويظهر خداعه وغشه ولذلك سمى المخادع أحد غشاش زمان القيامة وعلامة خسارته هيجان عظيم فى أرض الأقباط وزلزلة وحريق يهدمان أبنية فى الفسطاط

والقاهرة ، ويظهر مخادع آخر فى نفس هذه المدينة يحاول التملك عليها ولكنه يقتل ، ويأتى المسيخ الدجال فى صورة رومى ويجتمع الروم حول رايته ويخرب حلب بجيوشه ثم يخرج منها بعد ويل وحرب ، ويأتى روم يحاولون إهلاك أهالى الصعيد والريف ، ولكن أهالى الصعيد ينتصرون عليهم بعد ذلك ، وتنهدم أبنية العبادة للطوائف المختلفة ويضعف الإيمان ويقع اضطهاد عنيف على الموحدين ، ويتملك اليهود بيت المقدس وينتقمون بقيادة ألحد الكذاب من سكان القدس وعكا ، ثم يظهر المسيح بن يوسف فى أرض مصر ويهزم الروم ويطهر البلاد من المخادع ألحد غشاش يوم القيامة ، ويبنى لبلاده مجداً عظيما فى الداخل والخارج ويلتف حوله الناس جميعاً ثم يطرد اليهود من بيت المقدس بعد حروب قاسية يعود بعدها اليهود أذلة إلى التيه ، هذه كلها من علامات الساعة فى كتب الدروز المقدسة .

ثم يظهر الحاكم بناسوته فى شهر جمادى أو شهر رجب من شهور الهجرة واختلفت الرسائل المقدسة فى مكان ظهور المعبود يوم القيامة فبعضها وخاصة كتابات حمزة تذهب إلى أن ظهوره سيكون فى مصر ، أما رسالة الأسرار ففيها تصريح بأن المعبود سيكون فى بلاد الصين يخرج من سد الصين العظيم وحوله شعب يأجوج ومأجوج وهم قوم يؤمنون بمذهب التوحيد ، ويدخلون مكة ويتجلى المعبود لهم فى صورة الحاكم بأمر الله من الركن اليمانى وفى يده السيف فيقدمه إلى حمزة الذي يهدد بسيف الحاكم مخالفى العقيدة ويعطى الحكم للموحدين ، وينقسم الناس يوم البعث إلى أربع فرق : فرقة ناجية هى فرقة الموحدين وسيكون لهم السلطان ومنهم الوزراء والحكام ، وثلاث فرق هالكة هم أهل الظاهر وأهل الباطن والمرتدون ، وأصحاب هذه الفرق الثلاث سيكونون عبيداً للموحدين .

أما العذاب والجزاء فيفهم من كتابات حمزة أن العذاب الواقع بالإنسان نقلته من درجة عالية إلى درجة دونها من درجات الدين ، وقلة معيشته وعمى قلبه فى دينه ودنياه ، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد بتناسخ روحه فى الأجساد وهو كلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد تقل منزلته الدينية ، أما الجزاء فى الثواب ما دام يتكرر فى الأجساد فهو زيادة درجته فى العلوم الدينية وارتفاعه من درجة إلى درجة إلى أن تبلغ إلى درجة حد « المكاسر » وهو حد من حدود الدين فيزيد فى ماله

وينبسط فى الدين من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ إلى أرقى حد من حدود الدين .

هكذا تذهب العقيدة الدرزية فى اليوم الآخر وفى الثواب والعقاب . والذى نلاحظه فى الثواب والعقاب أن قول حمزة وبهاء الدين هو نفس ما جاء فى كتب تأويل العقيدة الفاطمية .

خاتمة

رأينا فيما تقدم كيف أن هؤلاء الذين يعتنقون عقيدة الموحدين الذين يعرفون خطأ فى العالم بالدروز ، هم من قبائل عربية معروف نسبها على مدى التاريخ ، وأنهم دائماً كانوا ولا يزالون يداً واحدة مع إخوانهم العرب فى الحركات السياسية ، فكانوا يعملون مع العرب ضد الصليبيين ، وضد التتار ، ثم ضد المستعمرين الأوربيين من فرنسيين وإنجليز ، وتاريخهم شاهد على بطولتهم الحربية فى كل المواقع التى خاضوها جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب ، وهم يعتزون بعروبتهم حتى إنهم غيروا اسم « جبل الدروز » إلى اسم « جبل العرب » إمعاناً فى عروبتهم ، حتى إن المستعمرين الفرنسيين حينما حاولوا التفريق بين الدروز والمسلمين قال أحد زعماء الدروز وهو عادل النكدى فى خطبة له « إن الدروز مسلمون كانوا ولا يزالون وإنهم لو لم يكونوا كذلك لصيرتهم عربيتهم مسلمين » .

أما عن علاقة الدروز بالمسلمين فيكفى أن ننقل هنا ما نشره أمير البيان العربى الأمير شكيب أرسلان — وكان من أمراء الدروز — فى جريدة الشورى بتاريخ ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ هـ : « الدروز فرقة من الفرق الإسلامية أصلهم من الشيعة الإسماعيلية الفاطمية ، والشيعة الإسماعيلية الفاطمية أصلها من الشيعة السبعية القائلين بالأئمة السبعة ، وهؤلاء من جملة المسلمين كما لا يخفى ، فإذا قيل إن الدروز هم من الفرق الباطنية التى لا يحكم لها بالإسلام فالجواب أن الدروز يقولون إنهم مسلمون ويقيمون جميع شعائر المسلمين ويتواصون بمرافقة الإسلام والمسلمين فى السراء والضراء ويقولون إن من خرج عن ذلك منهم فليس بمسلم ، ولهذا أصبح من الصعب على المسلم الذى فهم الإسلام كما فهمه السلف الصالح والذى سمع حديث (هلا شققت عن قلبه) أن يخرج الدروز من الإسلام ، وفى الشرع المحمدى قاعدة : نحن لنا الظاهر والله يتولى السرائر . وقد قال الله تعالى : "... ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا" وهؤلاء لا يلقون السلام فقط بل

يلقون السلام ويقولون إنهم مسلمون ، ويحفظون القرآن ، ويلقن ملقنهم الميت " إذا جاءك منكر ونكير وسألاك ما دينك ومن نبيك وما كتابك ومن إخوانك وما قبلتك ، فقل لهما الإسلام دينى ومحمد نبيى والقرآن كتابى والكعبة قبلتى والمسلمون إخوتى " وليس من شعائر الإسلام شىء لا يقيمه أو لا يوجب إقامته الدروز ، وإذا قيل إنه مع كل هذه المظاهر تحتوى عقيدتهم الباطنية التى تعرفها طبقة العقال على مايصادم أركان عقيدة السنة والجماعة ولا يتفق معها فى شىء فالجواب قد وجد بين المسلمين أئمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم ولهم قباب على أضرحتهم التى تزار وتعلق فيها القناديل وكانوا يقولون بوحدة الوجود ! فهل وحدة الوجود مما يطابق القرآن والسنة ، كلا . فهل أخرج المسلمون هؤلاء الأئمة من الإسلام ؟ أما تجسد الإله فليس من عقيدة الدروز كما يتهمهم بعضهم ، والتجسد شىء ورؤية الإله شىء آخر . . إلخ » .

فالمرحوم شكيب أرسلان يثبت أن فرقة الدروز فرقة إسلامية فى كل شىء وهى أشبه شىء بالفرق الصوفية التى لها تعاليمها الخاصة ولها تأويلاتها الخاصة ، ويخيل إلىّ أنه بالرغم من إغلاق باب الاجتهاد ، وباب الدعوة بحيث لا يقبل فى المذهب الدرزى أحد بعد غيبة المقتنى بهاء الدين ، فإن العقيدة التى وضعها حمزة وبهاء قد أصابها كثير من التعديل بفضل بعض الشراح أمثال الأمير عبد الله التنوخى الملقب بالسيد المتوفى سنة ٨٨٤ هـ المدفون بمدينة عبية ، وكان من الذين عملوا إلى العودة بالدروز إلى مذهب أهل الجماعة والسنة ، وأمثال الأمير شكيب أرسلان وعارف بك النكدى وكثير من أماثل طائفة الدروز الذين لا يقبلون بغير الإسلام بديلا ويقولون إن الدروز فرقة إسلامية قبل كل شىء .

وبعد فأرجو أن أكون قد وفقت فى تقريب تاريخ وعقائد طائفة الدروز إلى جمهور القراء والسلام . . .

المراجع

من الطبيعى أن تكون كتب الدروز المقدسة التى ذكرتها من قبل هى المصادر الأولى لبحثى هذا ، وتليها فى الأهمية كتب الإسماعيلية الفاطميين ، وقد سبق أن ذكرتها فى كتابى « طائفة الإسماعيلية » ، ولذلك لن أذكر هنا هذه الكتب مرة ثانية ، كذلك أقول عن أمهات الكتب العربية التى يرجع إليها كل باحث فى تاريخنا العربى أو أدبنا العربى أمثال تاريخ الطبرى ، وتاريخ ابن الأثير ، وتراجم ابن خلكان ، وكتب المكتبة الجغرافية ، وكتب الموسوعات مثل صبح الأعشى ونهاية الأرب للنويرى ومسالك الإبصار لابن فضل الله العمرى وغير ذلك من الكتب العامة التى لا يستغنى عنها الباحث فلن أذكرها ، وسأكتفى بذكر بعض الكتب التى لا يتداولها الباحثون كثيراً .

البلاذرى : فتوح البلدان

جودت باشا : تاريخ جودت (باللغة التركية)

ابن حجر العسقلانى : رفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط بدار الكتب المصرية)

الذهبى : تاريخ الإسلام (مخطوط بدار الكتب المصرية)

سعيد بن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق

شكيب أرسلان : روض الشقيق فى الجزل الرقيق (وهو ديوان شعر الأمير نسيب أرسلان وجاء فى آخر الديوان سجل نسب آل أرسلان)

شمس الدين سامى : قاموس الأعلام

صالح بن يحيى التنوخى : تاريخ بيروت

طنيوس الشدياق : تاريخ الأعيان

عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله المفترى عليه

على ظريف الأعظمى : تاريخ ملوك الحيرة

ابن القلانس : ذيل تاريخ دمشق

محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية

محمد كرد على : خطط الشام

مسكويه : تجارب الأمم

المقريزى : اتعاظ الحنفا

: المواعظ والاعتبار

: المقفى الكبير (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس)

ملحم إبراهيم البستانى : كوثر النفوس

يحيى الأنطاكى : تاريخ يحيى الأنطاكى

الفهرس

الموضوع — الصفحة

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨

12-760258 - Copy 2

طائفة الدروز

تاريخها وعقائدها

يجرى ذكر الدروز على ألسنة الناس ويذهبون فى هذه الطائفة مذاهب شتى . وقل أن نجد بينهم من يحيط بتاريخ الدروز وحقيقة عقائدهم . وقد أقبل العلماء الغربيون والعرب على دراسة هذه العقائد على أثر تسرب بعض النسخ من كتبهم المقدسة إلى مكتبات الدول المختلفة ولكنهم لم يصادفوا فى أبحاثهم نجاحاً كبيراً . وهذا الكتاب يشرح تاريخ هذه الطائفة وعقائدها وقد عرض فيه المؤلف الآراء المذهبية كما وردت فى الكتب المقدسة فى إيجاز شديد دون مناقشتها مع الإلمام بالأصل الذى استقى منه دعاة الدروز هذه العقائد .

مكتبة الدراسات التاريخية

● صدر منها :

مصر والسودان	للدكتور محمد فؤاد شكرى
تاريخ الطباعة فى الشرق العربى	للدكتور خليل صابات
الدولة العربية الكبرى	للأستاذ محمود كامل المحامى
الهيلينية فى مصر من الإسكندر إلى الفتح العربى	تأليف : سير هارولد إدريس بل وترجمة الأستاذ زكى على
تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى	للدكتور على حسنى الخربوطلى
سيف الدولة وعصر الحمدانيين	للأستاذ سامى الكيالى
العرب فى صقلية	للدكتور إحسان عباس
الفن الحربى فى صدر الإسلام	للأستاذ عبد الرءوف عون
طائفة الدروز ، تاريخها وعقائدها	للدكتور محمد كامل حسين
حضارات غارقة	للدكتور سليم أنطون مرقس

٢٥ م

١٧١٦٩